اختيارات الشيخ المودودي في تفسيره تفهيم القرآن: دراسة نقدية حول سورة البقرة

رابعة نور*

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فقد أكرم الله تعالى هذه الأمة بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وأنعم به عليها، ولذا تقبله المسلمون قبولا حسنا فأقبلوا عليه دراسة وتعلما وفهما وتدبرا وتفسيرا، ومن هنا كانت نشأة عدد من العلوم التي وقفها أصحابها لخدمة النص القرآني، فكان علم التفسير في مقدمة العلوم التي قدمت خدمات جليلة في سبيل تأويل الآيات الكريمة وتفسير معانيها في مختلف الأزمنة والأمكنة، ولم يكن ليقدم على هذا العلم الجليل إلا أصحابه المؤهلون وأربابه الموفقون، ففسروه وحاولوا أن يقربوا المفاهيم الصحيحة والمرادات السليمة للقراء من أمة الإسلام، ومما نشأ لخدمة النص القرآني ما سمي في صفحات التاريخ بفن "علوم القرآن" الذي استهدف أصحابه من وضعه أن يلقوا أضواء كاشفة على ما يكون عونا لقارئ القرآن الكريم وتفسيره، ليسير على هدى وبصيرة، وأن لا يضل عن صراط الهدي المستقيم. وكان أحد الفنون التي ينبغي أن يتعلمه المفسر ما يسمى بعلم "قواعد التفسير" الذي يبصر المفسر فيه على مواطن الصواب ويأخذ بيده إلى مواضع الحقائق القرآنية الحقيقية، ذلك العلم الذي تفرع عنه ما يسمى الآن بـ: "قواعد الترجيح عند المفسرين"، والذي يميز الأقوال الراجحة من الأقوال المرجوحة في المسائل الخلافية، أو القول المختار من المرجوح غير المختار من هذه الأقوال، ويعين المفسر على معرفة القول الأصوب من غيره والرأي الأنسب بالأخذ.

---

* محاضرة زائرة وطالبة دكتوراه بقسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد.

إن المتتبع للتفاسير القرآنية كثيرا ما يجد الأقوال المختلفة والآراء المتنوعة في كلمات القرآن وآياته، فيختلط عليه القول الخطأ بالصواب والغث بالسمين والحق بالباطل، من هنا كانت الحاجة ماسة إلى بيان القواعد والأصول الترجيحية التي يتوصل بها إلى أرجح الأقوال من بين الأقوال المختلفة والآراء المتنوعة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[١] مبينا سبب تأليف مقدمته في أصول التفسير: "فقد سألني بعض الإخوان أن أكتب له مقدمة تتضمن قواعد كلية، تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره ومعانيه، والتمييز في منقول ذلك ومعقوله بين الحق وأنواع الأباطيل، والتنبيه على الدليل الفاصل بين الأقاويل، فإن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين، والباطل الواضح والحق المبين"[٢].

ومع أهمية هذا الموضوع لم يفرد أحد من العلماء المتقدمين هذه القواعد بالتصنيف والتأليف، بل ذكروها في ثنايا تفاسيرهم[٣] أو في مقدماتها[٤]، أو في كتب علوم القرآن، إلا أن بعض المعاصرين أفردها بالتأليف مثل حسين بن علي الحربي حيث ألف كتابه باسم: **قواعد الترجيح عند المفسرين: دراسة نظرية تطبيقية**، وخالد بن عثمان السبت ألف كتابه باسم: **قواعد التفسير جمعا ودراسة** ـ حفظهما الله ـ.

١- هو: شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي الإمام العلامة الفقيه المجتهد الناقد المفسر البارع الأصولي، ولد في ٦٦١هـ، اشتغل بالعلوم منذ صغره، فدرس وأفتى وفاق الأقران قبل العشرين، وقد امتحن وأوذي مرارا، مات في ٧٢٨هـ، وهو معتقل بقلعة الشام. من تصانيفه: **كتاب السياسة الشرعية**، و**كتاب اقتضاء الصراط المستقيم**، و**كتاب الرد على طوائف الشيعة**. انظر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، المحقق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ج١، ص١٦٨ وما بعدها، ومحمد بن علي بن أحمد شمس الدين الداودي المالكي، **طبقات المفسرين**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ٤٦ وما بعدها. (راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر).

٢- أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، **مقدمة في أصول التفسير**، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م، ج ١، ص ٧.

٣- من هؤلاء إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري الذي حاز قصب السبق فيها، حيث استخدم القواعد الترجيحية في ثنايا تفسيره.

٤- مثلًا: الإمام ابن جزي ذكر في مقدمة تفسيره اثني عشر وجها من وجوه الترجيح. انظر: أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن جزي الكلبي الغرناطي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، المحقق: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، ج ١، ص ١٩.

الاختيارات لغة واصطلاحا

الاختيارات جمع الاختيار وهو لغة مشتق من "خير"، والخاء والياء والراء أصله العطف والميل، والخير خلاف الشر، والاختيار هو الاصطفاء والتفضيل، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٥]، أي: قدمناهم على غيرهم من العالمين. وخاره على صاحبه أي: فضّله عليه، فإذا عدي بعلى فهو في معنى التفضيل، وخار الشيء واختاره، أي: انتقاه واصطفاه، والمختار المنتقى[٦]. فالمعنى العام الذي تدور حوله كلمة "خير" هو الاصطفاء والانتقاء والتفضيل. أما الاختيار في لغة القرآن فيراد به التفضيل والانتقاء والاصطفاء، قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾[٧].

وأما الاختيار في اصطلاح المفسرين فلا يختلف عنه كثيرا في اللغة، واستعمال المفسرين المتقدمين له يدل على أنه بمعنى الترجيح، حيث لا يفرقون بين المصطلحين، فيستعملون الاختيار في تقوية أحد الأقوال في تفسير الآية لدليل، وتضعيف ما سواه[٨]، إلا أن بعض المفسرين المتأخرين يفرقون بين هذين المصطلحين، لأن كلا من المصطلحين له دلالته في اللغة، ولأن الاختيارات الواردة في التفاسير ليست على مرتبة واحدة، ومن هنا عرّفه المتأخرون بتعريفات عديدة، منها:

٥- سورة الدخان، الآية ٣٢.

٦- انظر: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، فصل الخاء، مادة: "خير"، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج ٢، ص ٦٥٢، وأبو الحسين حمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب الخاء، مادة: "خير"، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج ٢، ص ٢٣٢، وأبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، كتاب الخاء، مادة: "خير"، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق وبيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ج١، ص ٣٠١-٣٠٢، ومحمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، **لسان العرب**، فصل الخاء المعجمة، مادة: "خير"، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ج ٤، ص ٢٦٤-٢٦٥، وإبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، باب الخاء، مادة: "خير"، دار الدعوة، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج١، ص ٢٦٤.

٧- سورة طه، الآية ١٣، انظر: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، **جامع الرسائل**: تحقيق: محمد رشاد سالم، دار العطاء، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج ١، ص ١٣٧.

٨- حسين بن علي بن حسين الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين: دراسة نظرية تطبيقية**، راجعه وقدم له: مناع القطان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج ١، ص ٣٥.

"هو الميل إلى أحد الأقوال في تفسير الآية، مع تصحيح بقية الأقوال"[٩]. أو "هو تقديم أحد الأقوال المقبولة في تفسير الآية لسبب معتبر"[١٠]. وفي موضوعنا هذا: يقصد بالاختيار تقديم ما رجحه المفسرون القدامى من بين الأقوال التفسيرية، وذكروا أدلته لاعتبارات مختلفة.

والدراسة في الصفحات التالية تقتصر على بعض اختيارات الشيخ أبي الأعلى المودودي رحمه الله تعالى في سورة البقرة من القرآن الكريم، فقد امتاز تفسيره المسمى بـ: **تفهيم القرآن** بعدد من الاختيارات التي هي مبثوثة في صفحاته، يضاف إلى ذلك أنه امتاز بعدد من الميزات التي منها:

١- أن مؤلفه كان عالما عاملا بعلمه، ومفكرا يقاوم الغزو الفكري، وداعية في ميدان الإصلاح، وكان قائدًا لحركة إسلامية بارزة نشطة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، مما كان له أثره في فهمه الآيات وتفسيرها، وربط معانيها بالواقع، ويتجلى ذلك في:

* إبرازه لجوانب الإصلاح الشامل للعقائد والأخلاق والأسرة والمجتمع والاقتصاد والدولة.
* رده على أفكار الفرق الضالة من القاديانية، ومنكري الحديث، وعلى الفلسفات الغربية بشكل خاص، وعلى الحركات الاستشراقية والتنصيرية بصورة عامة.

٢- أن مؤلفه كان لفكره ولحركته أثر جلي غير محدود في شبه القارة الهندية حيث تجاوزها إلى مناطق كثيرة في العالم عامة لاسيما العالم العربي.

٣- أن تفسيره من أكثر التفاسير انتشارا بين الناطقين بالأردية علاوة على كتبه ورسائله في الموضوعات المختلفة، ونظرا لأهميته فقد تمت ترجمته كاملة أو جزئية إلى مختلف لغات العالم، مثل العربية والإنجليزية والبشتوية والفارسية والبنغالية.

٤- لما امتاز به أسلوبه عن غيره من المفكرين والكتّاب ومنهجه الذي سار عليه في الاختيار، ومن ذلك:

* استخدامه لغة العصر، واختياره أسلوبا سهلا جديدا حسب متطلبات المثقف العادي.
* تحقيقه التاريخي والجغرافي للقصص القرآنية وربطها بالواقع.
* عدم التعصب المذهبي في المسائل العقدية والفقهية من العبادات والمعاملات.

٩- حسين بن علي بن حسين الحربي، **منهج الإمام ابن جرير الطبري في الترجيح**، الجنادرية للنشر والتوزيع، ص ٥٧.

١٠- أبو مجاهد العبيدي، **الاختيار والترجيح: أهميتها وأثرهما في التفسير**، ملتقى أهل التفسير على الإنترنيت.

أولًا: قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(١١).

في الآية مسألتان:

المسألة الأولى: ما المراد بـ: "خَلِيفَةً" في الآية؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "الخليفة هو من ينوب صاحب الشيء في إجراء ما فوّض إليه المالك من الصلاحيات. فالخليفة ليس هو المالك نفسه، وإنما من ينوب عن المالك فيما وكله من الصلاحيات. وهو لا يملك من عند نفسه أية صلاحيات، وإنما كل ما يملكه هو ما وكله إليه المالك من الاختيارات والصلاحيات، ولا يحق له التصرف في الأمور على ما يريده، وإنما واجبه أن يقوم بما وكله إليه المالك. ولا شك أنه يعد خائنا أو طاعنا إن اعتبر نفسه مالكا وتصرف في الملك حسب رغبته وهواه، أو أنه أنكر المالك الحقيقي وخضع لأوامر شخص آخر واعتبره مالكا وأخذ يطبق أوامره ويتصرف حسب رغبته"(١٢).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ يتضح أنه ذكر قولا واحدا في المراد بـ: "خليفة" في الآية، مما يدل على أنه هو القول المختار عنده، إلا أنني وجدت قولين في المراد بـ: "خليفة" في الآية، أذكرهما باختصار على النحو التالي:

القول الأول: يراد به هنا: آدم عليه السلام، لأن الله تعالى استخلفه في الأرض بين المكلفين من خلقه لإقامة حدوده وإمضاء أحكامه بين عباده، وكذلك كل نبي بعده خليفة الله تعالى في الأرض. قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾(١٣)، واقتصر على آدم عليه السلام، لأنه أبو الخلائف. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الرازي(١٤)، والقرطبي(١٥)، وابن جزي(١٦)، وغيرهم(١٧).

١١- سورة البقرة، الآية: ٣٠.

١٢- أبو الأعلى المودودي، **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٦٢.

١٣- سورة ص، الآية ٢٦.

١٤- انظر: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي، **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط٣، ١٤٢٠هـ، ج ٢، ص ٣٨٨. والرازي هو: محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي العلامة فخر الدين أبو عبد الله القرشي البكري الطبرستاني الرازي، ابن خطيب الري، الشافعي المفسر المتكلم الأصولي صاحب =

القول الثاني: يراد به هنا: ولد آدم عليه السلام وذريته، لأن بعضهم يخلف بعضا، قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل في عمارة الأرض، إذا هلكت أمة خلفتها أخرى، فيكون مفردا أريد به الجمع. أي: خلائف.

= التصانيف، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة. من مصنفاته: **التفسير الكبير**، **والبرهان في قراءة القرآن**، **وعيون الحكمة فلسفة**، وقد كانت وفاته في يوم الفطر بهراة سنة ست وستمائة. انظر: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج ٢١، ص ٥٠٠-٥٠١، وتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر، ط٢، ١٤١٣هـ، ج٨، ص ٨١، وأحمد بن محمد الأدنه وي، **طبقات المفسرين**، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج ١، ص ٢١٣- ٢١٤.

١٥- انظر: محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ج ١، ص ٢٦٣، ، والقرطبي هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، الإمام العلامة صاحب التفسير المشهور المسمى بـ: **الجامع لأحكام القرآن**، الذي سارت به الركبان، متفنن في العلم متبحر فيه، تصانيفه تدل على إمامته، وكثرة اطلاعه، ووفور فضله، توفي في ٦٧١هـ. من تصانيفه: **شرح الأسماء الحسنى**، **والتذكار في فضل الأذكار**، **والتذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة**. انظر: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج ٢، ص ٨٧، والداودي، **طبقات المفسرين**، ج ٢، ص٦٩-٧٠، والأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج ١، ص ٢٤٦-٢٤٧.

١٦- انظر: **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ٧٩. وابن جزي هو: محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي الغرناطي، أبو القاسم. كان عالما في فنون العربية والفقه والأصول والأدب والحديث والتفسير، تقدم خطيبا ببلده على حداثة سنه فاتفقوا على فضله. من مصنفاته: **وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم**، **والمختصر البارع في قراءة نافع**، **والفوائد العامة في لحن العامة**، **والدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار**. توفي شهيدا عام إحدى وأربعين وسبعمائة. انظر: ابن حجر، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، ج٥، ص ٨٨-٨٩، والداودي، **طبقات المفسرين**، ج ٢، ص ٨٥-٨٧.

١٧- ينظر: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص ٢٢٧. وأبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج ١، ص٢١٦. وشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج١، ص٢٢٢، وثناء الله المظهري، **التفسير المظهري**، تحقيق: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشيدية، باكستان، ١٤١٢هـ، ج ١، ص ٤٩.

وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الرازي[١٨]، وابن جزي[١٩]، وأبو حيان الأندلسي[٢٠]، وغيرهم[٢١].

ومن الجدير بالذكر أن الإمام ابن جزي والشيخ طنطاوي[٢٢] ذكرا هذا القول بصيغة التمريض[٢٣].

التعليق

يتضح من القراءة في الأسطر السابقة أن هناك قولين في المسألة، والشيخ المودودي اقتصر بذكر القول الأول منهما، مما يدل على أنه هو القول المختار عنده، فوقع عليه اختياره، وهو أن المراد بـ: "خليفة" من ينوب صاحب الشيء في إجراء ما فوض إليه من الاختيارات والصلاحيات، ولا يخفى أن الشيخ اعتمد في هذا الأمر على الاحتجاج اللغوي، واحتكم فيه إلى أصل اللغة العربية ومدلول الكلمة فيها، كما أنه استند إلى أن ما يميز الإنسان عن سائر المخلوقات هو مسؤوليته الأخلاقية، وأمانته في الصلاحيات التي فوض إليه أمرها من قبل رب العالمين، وليس نطقه، ولا كونه اجتماعيا[٢٤]، وإليه ذهب معظم المفسرين، أمثال: السمعاني[٢٥]، والبغوي[٢٦]، والقرطبي[٢٧]، وغيرهم[٢٨].

١٨- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٣٨٩.

١٩- انظر: **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ٧٩.

٢٠- انظر: **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٢٧. وأبو حيان الأندلسي هو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي، نحوي عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه، برع في التفسير والعربية والقراءات والأدب والتاريخ، اتفق أهل عصره على تقديمه وإمامته، حيث أخذ عنه أكابر عصره، صنف التصانيف السائرة منها: **البحر المحيط في التفسير**، و**إتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب**، و**تجريد أحكام سيبويه**. انظر: الداودي، **طبقات المفسرين**، ج٢، ص٢٨٧ وما بعدها، والأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج١، ص٢٧٩ وما بعدها.

٢١- ينظر: **تفسير ابن كثير**، ج ١، ص ٢١٦، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص٢٢٢، و**التفسير الوسيط**، ج ١، ص ٩٢.

٢٢- وطنطاوي هو: الشيخ محمد سيد طنطاوي، ولد في سوهاج (مصر)، ١٩٢٨م، تعلم وحفظ القرآن الكريم في الإسكندرية، عمل عميدا لكلية الدراسات الإسلامية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم عين مفتيا للديار المصرية، وبعدها عين شيخا للأزهر، توفي في عام ٢٠١٠م. من مؤلفاته: **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، و**بنو إسرائيل في القرآن والسنة**، و**معاملات البنوك وأحكامها الشرعية**. انظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة على الإنترنيت، والموقع الرسمي للشاملة على الإنترنيت، ووفاة سيد طنطاوي ـ شيخ الأزهر ـ الجزيرة. نت.

٢٣- انظر: **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ٧٩، و**التفسير الوسيط**، ج ١، ص ٩٢.

٢٤- انظر: الهامش ١٠ من سورة الأعراف في تفسير الشيخ **تفهيم القرآن**.

٢٥- انظر: منصور بن محمد بن عبد الجبار الشافعي، **تفسير القرآن**، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. والسمعاني هو: الإمام الجليل العلم الزاهد الورع العلامة، مفتي خراسان، شيخ الشافعية، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، السمعاني، المروزي، الحنفي كان، ثم الشافعي. ولد سنة ست وعشرين وأربع مائة، تعصب لأهل الحديث والسنة والجماعة، =

الأدلة

١- **القرآن الكريم**: يراد به آدم عليه السلام لأن الله تعالى جعله مستخلفا عن نفسه في إجراء أحكامه وتنفيذ أوامره، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾(٢٩).

= كما كان شوكا في أعين المخالفين. من مصنفاته: **تفسير القرآن**، **والقواطع في أصول الفقه**، **والبرهان** في الخلاف، **والأمالي** في الحديث، توفي سنة تسع وثمانين وأربع مائة. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٩، ص١١٤وما بعدها، والسبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج ٥، ص ٣٣٥ وما بعدها.

٢٦- انظر: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص ١٠٢. والبغوي هو: الإمام، العلامة القدوة الحافظ، شيخ الإسلام، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، الشافعي، المفسر، الملقب بمحيي السنة وبركن الدين، وكان زاهدا ورعا قانعا فقيها محدثا. من مصنفاته: **شرح السنة** و**معالم التنزيل**، وهو التفسير المشهور بـ: **تفسير البغوي**، و**المصابيح**، وكتاب **التهذيب** في المذهب، و**الجمع بين الصحيحين**، و**الأربعين حديثا**. وكانت وفاته بمرو الروز (خراسان) سنة ست عشرة وخمس مائة، ودفن بجنب شيخه القاضي حسين. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١٩، ص ٤٣٩ وما بعدها، والسبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج ٧، ص ٧٥-٧٧، الأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج ١، ص ١٥٨-١٦٠.

٢٧- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٦٣.

٢٨- انظر: **تفسير ابن جزي**، ج ١، ص ٧٩، وعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبي الحسن، المعروف بالخازن، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج١، ص ٣٥، وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **تفسير الجلالين**، دار الحديث، القاهرة، ط١، ج ١، ص ٨، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٢٢، ومحمد محمود الحجازي، **التفسير الواضح**، دار الجيل الجديد، بيروت، ط١٠، ١٤١٣هـ، ج ١، ص ٣٠، ومحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ، ج١، ص ٣٩٩، ، ومحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج ١، ص ٢٠، وثناء الله المظهري، **التفسير المظهري**، ج ١، ص ٤٩، ومحمد سيد طنطاوي، **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ج ١، ص ٩٢، ومحمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**،دار الصابوني، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج ١، ص ٤٠، وجابر بن موسى ابن عبد القادر بن جابر أبي بكر الجزائري، **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٥، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج ١، ص ٤٠، ووهبة بن مصطفى الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ، ج ١، ص ١٢٤.

٢٩- سورة ص، الآية ٢٦. انظر: الرازي، **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٢٨٩، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ١، ص٤٠.

٢- السياق: كون المراد به آدم عليه السلام هنا، الظاهر المتبادر من سياق الآية[٣٠].

٣- مطابقة اللفظ لمدلولها: وردت كلمة "خليفة" هنا مفردة من أجل ذلك يراد بها آدم عليه السلام بمفرده لا يشاركه فيها غيره من ذريته[٣١].

ويؤيد هذا القول القواعد الترجيحية التالية:

* "القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عُدِم ذلك"[٣٢].
* "إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما، إلا بدليل يجب التسليم له"[٣٣].
* "القول الذي يؤيده تصريف الكلمة وأصل اشتقاقها أولى بتفسير الآية"[٣٤].

المسألة الثانية: ما نوع "الهمزة" في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "لم يعترض الملائكة على مشيئة الله عز وجل، وإنما أرادوا أن يستفسروا. وأنى للملائكة أن يعترضوا على ما يريده الله عز وجل؟ فالملائكة فهموا من لفظ "الخليفة" أن هذا المخلوق الجديد سيتولى بعض الصلاحيات على وجه الأرض، لكنها لم تستوعب، كيف يمكن أن يتحمل نظام الكون واستقراره مخلوق يتمتع بالإرادة، وكيف ينجو نظام الكون في الجزء الذي تتم فيه عملية تفويض الصلاحيات من الخراب والدمار، فالملائكة كانوا يستفسرُون عن هذا"[٣٥].

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ يتضح أنه ذكر قولا واحدا في المسألة، إلا أنه ورد في كتب التفاسير لـ: "الهمزة" في " أَتَجۡعَلُ" قولان:

القول الأول: الهمزة على وجه الاستفهام الحقيقي المحض، لرفع الجهل لا الاعتراض، لأنهم منزهون عنه، أي: أنهم قالوه استفهاما واستخبارا حين قال الله لهم: "إني جاعل في الأرض خليفة"، فقالوا: يا ربنا

٣٠- انظر: **تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٢٢، والشنقيطي، **أضواء البيان**، ج ١، ص ٢٠.

٣١- انظر: **تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٢٢.

٣٢- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٣١٢.

٣٣- المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٥.

٣٤- نفس المصدر، ج ٢، ص ٥١١.

٣٥- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٦٢-٦٣.

أعلمنا أجاعل أنت في الأرض من يفسد فيها، ويسفك الدماء؟ وممن ذكره من المفسرين: الماوردي[٣٦]، والقرطبي، وابن جزي[٣٧].

أو الاستفهام على جهة استطلاع واستعلام وجه الحكمة من هذا الأمر ليس على وجه الاعتراض، وإنما على وجه العلم والتثبت. أي قالوا: يا ربنا، أرشدنا إلى الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض، ويسفك الدماء. وممن ذكره من المفسرين: ابن كثير[٣٨]، ومؤلفو التفسير الميسر، وطنطاوي[٣٩].

أو الاستفهام على وجه التعجب، أي أنهم تعجبوا من استخلاف الله من يعصيه. وممن ذكره من المفسرين: القرطبي، وأبو حيان الأندلسي[٤٠].

أو الاستفهام على وجه الاستعظام والإكبار للاستخلاف، والعصيان. وممن ذكره من المفسرين: القرطبي، وأبو حيان الأندلسي[٤١].

٣٦- والماوردي هو: الإمام الجليل العلامة أقضى القضاة، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي الشافعي صاحب التصانيف. كان حافظا للمذهب، عظيم القدر، متقدما عند السلطان، وولي القضاء ببلدان شتى. كان من وجوه الفقهاء الشافعيين. درس بالبصرة وبغداد سنين، له المصنفات الكثيرة في كل فن من الفقه والتفسير والأصول والأدب. من مصنفاته: **تفسير القرآن** سماه: **النكت**، و**أدب الدنيا والدين**، و**الأحكام السلطانية** و**قانون الوزارة وسياسة الملك** و**الإقناع** مختصر في المذهب. مات سنة خمسين وأربع مائة. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١٨، ص ٦٤ وما بعدها، والسبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج ٥، ص ٢٦٧ وما بعدها، والأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج ١، ص ١١٩-١٢٠.

٣٧- انظر على التوالي: **النكت والعيون**، ج ١، ص ٩٦، أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، **تفسير الماوردي**، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، و**الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٧٤، و**التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ٧٩.

٣٨- وابن كثير هو: إسماعيل بن عمر بن كثير الحافظ عماد الدين أبو الفداء القرشي البصري الدمشقي الشافعي، ولد في دمشق سنة ٧٠١هـ، إمام حافظ، محدث متقن، مفسر نقاد، ومفت بارع، أخذ الكثير عن شيخه ابن تيمية وامتحن وأوذي بسبب اتباعه في كثير من آرائه، توفي في سنة ٧٧٤هـ، من مصنفاته: **تفسير القرآن العظيم**، و**البداية والنهاية**، و**مناقب الإمام الشافعي**. انظر: الداودي، **طبقات المفسرين**، ج ١، ص ١١١ وما بعدها، والأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج ١، ص ٢٦٠-٢٦١.

٣٩- انظرعلى التوالي: **تفسير القرآن العظيم**، ج ١، ص ٢١٦، و**التفسير الميسر** لنخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ط٢، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ج ١، ص ٦ ، و**التفسير الوسيط**، ج ١، ص ٩٣.

٤٠- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٧٤، و**البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٢٨-٢٢٩.

٤١- انظر: المصدر السابق.

القول الثاني: الهمزة على وجه الاستفهام التقريري (الإيجابي)، أي: أنها للتقرير دخلت على الفعل ليفيد العلم على وجه التحقيق. ومعناه الإيجاب وليس الاستفهام، فكأن الملائكة قالت: "ستجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء". وممن ذكره من المفسرين: ابن الجوزي(٤٢)، وأبو حيان الأندلسي(٤٣).

أو على وجه التعجب، أي أنهم قالوه تعجبا من استخلاف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يجهل. أي: تستخلفهم في الأرض، وقد علمت أنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء. وممن ذكره من المفسرين: الماوردي، والزمخشري(٤٤)، وابن الجوزي، والنسفي(٤٥)(٤٦).

٤٢- وابن الجوزي هو: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي، الإمام العلامة حافظ العراق وواعظ الآفاق، صاحب التصانيف المشهورة في العلوم المختلفة من التفسير والحديث والفقه والوعظ والتاريخ والطب وغيرها. ولد سنة ٥٠٩هـ أو ٥١٠هـ، وتوفي سنة ٥٩٧هـ. من مؤلفاته: **زاد المسير**، **وتلبيس إبليس**، **وصيد الخواطر**، **والموضوعات**. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢١، ص٣٦٥ وما بعدها، والصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج١٨، ص١٠٩ وما بعدها، والداودي، **طبقات المفسرين**، ج١، ص٢٧٥ وما بعدها.

٤٣- انظر: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **زاد المسير في علم التفسير**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ج ١، ص ٥٠، **والبحر المحيط**، ج ١، ص ٢٢٨.

٤٤- والزمخشري هو: العلامة، كبير المعتزلة، محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم الزمخشري، الخوارزمي، النحوي، اللغوي، المتكلم، الأديب، المفسر، الحنفي، صاحب **الكشاف**. يلقب بجار الله لأنه جاور بمكة زمانا. ولد في رجب سنة سبع وستين وأربع مائة بزمخشر (خوارزم). كان واسع العلم، رأسا في البلاغة والعربية والمعاني والبيان، وله نظم جيد. مات ليلة عرفة، سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة. له التصانيف البديعة، منها: **الفائق في غريب الحديث**، **وربيع الأبرار**، **وأساس البلاغة**، **والمنهاج** في الأصول، **والمفصل** في النحو. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢٠، ص١٥١ وما بعدها، والداودي، **طبقات المفسرين**، ج٢، ص٣١٤ وما بعدها، الأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج١، ص١٧٢-١٧٣.

٤٥- انظرعلى التوالي: **النكت والعيون**، ج١، ص ٩٦، وأبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري جار الله، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ج١، ص١٢٤، **وزاد المسير**، ج١، ص٥٠، وأبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج١، ص ٧٨.

٤٦- والنسفي هو: عبد الله بن أحمد بن محمود، حافظ الدين، أبو البركات، النسفي، فقيه حنفي، مفسر، توفي في سنة ٧١٠هـ. من مصنفاته: **مدارك التنزيل** في تفسير القرآن، **وكنز الدقائق** في الفقه، **والمنار** في أصول الفقه. انظر: الأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج١، ص٢٦٣، وخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، مايو ٢٠٠٢م، ج ٤، ص ٦٧.

أو على وجه الاستعظام، أي أنهم قالوه استعظاما لفعلهم، أي: كيف يفسدون فيها، ويسفكون الدماء، وقد أنعمت عليهم واستخلفتهم فيها. وممن ذكره من المفسرين: الماوردي(٤٧).

التعليق

يتبين من القراءة في السطور المختصة بتفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أن الشيخ المودودي رحمه الله رأى أن الهمزة استخدمت في هذه الآية للاستفهام الحقيقي على سبيل استطلاع الحكمة الكامنة في هذا العمل الرباني، والخافية عليهم، وليس فيها معنى الاستنكار والاعتراض من قبل الملائكة على هذا الأمر الرباني الجليل. فيقول: "لم يعترض الملائكة على مشيئة الله عزّ وجل، وإنما أرادوا أن يستفسروا. وأنى للملائكة أن يعترضوا على ما يريده الله عزّ وجل؟"، وإن كان بعض المفسرين أمثال: الماوردي(٤٨)، والزمخشري(٤٩)، وابن الجوزي(٥٠)، وغيرهم(٥١) ذكروا أن الاستفهام في هذه الآية للتقرير والإيجاب، فكأن الملائكة قالوا كذا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾، ولكن يتضح من استعراض أقوال المفسرين المختلفة أن الشيخ المودودي اختار معنى الاستفهام الحقيقي وفضله على المعنى التقريري (الإيجابي)، وذلك لأنه يتناسب مع مقام الملائكة في خطابهم لخالق الكائنات وربها، ويتطابق مع الموقف الذي دار فيه الحديث بين الملائكة المخلوقين وبين ربهم الخالق رب العالمين، حيث لا يليق بمخلوق أن يستنكر أمرا أراده الخالق. ولا يتناسب مع شأن الملائكة المخلصين للعبادة أن يعترضوا على أمر الله سبحانه وتعالى فإنهم مخلوق مجبول على الطاعة ليس لهم اختيار يبعثهم على التردد في الأوامر الإلهية كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾(٥٢)، وقوله تعالى: ﴿... وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾(٥٣)، وإليه ذهب جمهور المفسرين أمثال:

٤٧- انظر: **النكت والعيون**، ج ١، ص ٩٦.

٤٨- انظر: المصدر نفسه.

٤٩- انظر: **الكشاف**، ج ١، ص ١٢٤.

٥٠- انظر: ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٠.

٥١- ينظر: **تفسير النسفي**، ج ١، ص ٧٨، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٢٨.

٥٢- سورة التحريم، الآية: ٦.

٥٣- سورة النحل، الآية: ٤٩-٥٠، انظر: الهامش ٤٨ من سورة الكهف في تفسير الشيخ **تفهيم القرآن**.

البيضاوي(٥٤)، وابن جزي(٥٥)، وابن كثير(٥٦)، وغيرهم(٥٧).

الأدلة

١- هو قول أكثر المفسرين. يقول الإمام ابن جزي في مقدمة تفسيره: "أن يكون القول قول الجمهور وأكثر المفسرين: فإن كثرة القائلين بالقول يقتضي ترجيحه"(٥٨).

٢- كون هذا التفسير يتناسب مع شأن الملائكة المخلصين المعصومين. إن جمهور علماء الدين اتفقوا على عصمة جميع الملائكة وتنزيههم عن جميع الذنوب، وقد وصفهم الله في القرآن بأوصاف كثيرة، منها:

أ- اجتنابهم المعاصي، مع قيامهم بامتثال جميع الأوامر الإلهية، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٥٩).

٥٤- انظر: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ج١، ص ٦٨. والبيضاوي هو: الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق المدقق عبد الله بن عمر بن محمد بن علي أبو الخير القاضي ناصر الدين البيضاوي الشيرازي، صاحب التصانيف البديعة المشهورة منها: **مختصر الكشاف** في التفسير المسمى بـ: **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، و**الغاية القصوى في دراية الفتوى**، و**شرح مختصر ابن الحاجب** في الأصول، وكتاب **المنهاج** في أصول الفقه، وشرحه أيضًا، وكتاب **الإيضاح** في أصول الدين، و**شرح الكافية** في النحو، و**شرح المطالع** في المنطق. كان إماما مبرزا نظارا صالحا متعبدا زاهدا، ولي قضاء القضاة بشيراز. توفي بتبريز سنة خمس وثمانين وستمائة. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج ١٧، ص ٢٠٦، والسبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج ٨، ص ١٥٧-١٥٨، والأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج ١، ص ٢٥٤-٢٥٥).

٥٥- انظر: **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ٧٩.

٥٦- انظر: **تفسير القرآن العظيم**، ج ١، ص ٢١٦.

٥٧- انظر: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١، ص ٨٢، ومحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ج ١، ص ٢٨٥، ومحمد محمود الحجازي، **التفسير الواضح**، ج١، ص ٣٠، ونخبة من أساتذة التفسير، **التفسير الميسر**، ج ١، ص ٦، والطنطاوي، **التفسير الوسيط**، ج١، ص ٩٣، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ١، ص ٤١.

٥٨- **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ١٩.

٥٩- سورة التحريم، الآية: ٦.

ب- قيامهم بامتثال جميع الأوامر الإلهية، مع تركهم المنهيات: كقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(٦٠).

ج- عدم علمهم بالغيب، وبراءتهم من المعاصي لتوقفهم في جميع الأمور إلا بمقتضى أمر الله عزوجل: كقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾(٦١).

د- تسبيحهم بالليل والنهار بأكمل وجه: كقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾(٦٢). ومن كان كذلك امتنع صدور المعصية منه(٦٣).

هـ- طعنهم في البشر بالمعصية من الإفساد وسفك الدماء: كقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾(٦٤)، يدل على أنهم طعنوا في البشر بالمعصية ولو كانوا من العصاة لما حسن منهم ذلك الطعن(٦٥).

و- كونهم رسل الله عزوجل: أرسلهم الله بأوامره من الوحي وغيره(٦٦).

ويؤيد هذا القول القواعد الترجيحية التالية:

* "تفسير جمهور السلف مقدم على كل تفسير شاذ"(٦٧).
* "القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عدم ذلك"(٦٨).

ثانيًا: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٦٩).

٦٠- سورة النحل، الآية: ٥٠.

٦١- سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦-٢٧.

٦٢- سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

٦٣- الرازي، **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٣٨٩.

٦٤- سورة البقرة، الآية: ٣٠.

٦٥- المصدر نفسه.

٦٦- يراجع للمزيد من التفصيل: الرازي، **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٣٨٩، و**تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٢٧٤، و**تفسير البيضاوي**، ج١، ص٦٨، و**تفسير ابن جزي**، ج١، ص٧٩، و**البحر المحيط** لأبي حيان الأندلسي، ج١، ص٢٢٨.

٦٧- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٢٨٨.

٦٨- المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٢.

٦٩- سورة البقرة، الآية: ٣١.

مسألة: هل عُلّم آدم عليه السلام أسماء جميع الأشياء أم أسماء بعض الأشياء؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "يمكن تصور حقيقة العلم الإنساني في أنه يستطيع حفظ علم الأشياء في ذاكرته، ومن ثم فهمها عن طريق تسميتها. ومن هنا نجد أن كل العلوم الإنسانية تشتمل في واقعها على أسماء الأشياء. وكان تعليم الآدم الأسماء كلها يعني تزويده بعلم الأشياء كلها"(٧٠).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ يتبين أنه ذكر قولا واحدا في المسألة، ولم يلتفت إلى الأقوال الأخرى، مما يدل دلالة واضحة على أن القول المذكور هو المختار عنده، إلا أن استقراء آراء المفسرين أثبت لي أن هناك أقوالا متعددة في المسألة أذكرها على وجه الإجمال فيما يلي:

القول الأول: علمه أسماء جميع الأشياء التي خلقها الله تعالى دقيقها وجليها، والتي يتعارف بها الناس من إنسان ودابة وأرض، وسهل وبحر وجبل، ونحو ذلك. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري(٧١)، وابن عطية(٧٢)، وابن الجوزي(٧٣)، وغيرهم(٧٤).

٧٠- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٦٣.

٧١- انظر: محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج ١، ص ٤٨٢. والطبري هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن أبو جعفر الطبري، الإمام، المجتهد، العلم، رأس المفسرين على الإطلاق، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، ولد بآمل طبرستان سنة أربع وعشرين ومائتين، له التصانيف البديعة، منها: **تفسير القرآن**، و**تهذيب الآثار**، و**تاريخ الأمم والملوك**، مات سنة عشر وثلاثمائة. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١٤، ص ٢٦٧ وما بعدها، الأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج ١، ص ٤٨ وما بعدها.

٧٢- انظر: عبد الرحمن بن تمام بن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ج ١، ص ١١٩، وابن عطية هو: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي الغرناطي القاضي الإمام العلامة شيخ المفسرين، كان عالما بالتفسير والفقه والعربية، كما كانت له يد في الإنشاء والنظم والنثر، ألف تفسيره المسمى بـ: **المحرر الوجيز** فأحسن فيه وأبدع، ولد سنة ٤٨١هـ، وتوفي سنة ٥٤١هـ أو ٥٤٢هـ. من مؤلفاته: **برنامج**، و**المجموع**. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١٩، ص ٥٨٧-٥٨٨، والداوي، **طبقات المفسرين**، ج ١، ص ٢٦٥ وما بعدها.

٧٣- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٣.

٧٤- انظر: **تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٢٨٢، و**تفسير ابن جزي**، ج ١، ص ٧٩، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٣٥، وثناء الله المظهري، **التفسير المظهري**، ج ١، ص ٥٠، ومحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، **فتح القدير**، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ، ج ١، ص ٧٧.

القول الثاني: علّمه اسم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: أبوحيان الأندلسي، وثناء الله المظهري[٧٥]، والألوسي[٧٦].

ومن الجدير بالذكر أن القاضي ثناء الله المظهري، والعلامة الألوسي ذكرا هذا القول بصيغة التمريض.

القول الثالث: علّمه أسماء الملائكة فقط. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري[٧٧]، وابن عطية[٧٨]، وابن الجوزي[٧٩]، وغيرهم[٨٠].

القول الرابع: علّمه أسماء ذريته فقط. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري[٨١]، وابن عطية[٨٢]، وابن الجوزي[٨٣]، وغيرهم[٨٤]. وذكره العلامة الخازن[٨٥] بصيغة التمريض[٨٦].

٧٥- وثناء الله المظهري هو: محمد ثناء الله الهندي الفاني فتي النقشبندي الحنفي المظهري، المتوفى سنة ١٢١٦هـ، من آثاره: **التفسير المظهري**. انظر: إسماعيل بن محمد الأمين بن مير سليم الباباني البغدادي، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، ١٩٥١م، ج ٢، ص ٣٥٣-٣٥٤، وعمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة، **معجم المؤلفين**، مكتبة المثنى، الدمشق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٩، ص ١٤٤.

٧٦- انظرعلى التوالي: **البحر المحيط**، ج١، ص٢٣٥، و**التفسير المظهري**، ج١، ص٥٠-٥١، و**روح المعاني**، ج١، ص٢٢٦. والألوسي هو: محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، أبو الثناء، مفسر، محدث، أديب، من المجددين: (١٢١٧-١٢٧٠هـ/ ١٨٠٢-١٨٥٤م): من أهل بغداد. مولده ووفاته فيها. كان سلفي الاعتقاد، مجتهدا، مفتي بغداد، وتولى التدريس أيضًا. من مصنفاته: **روح المعاني في التفسير**، و**نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول** رحلته إلى الآستانة، و**نشوة المدام في العود إلى دار السلام**. انظر: الزركلي، **الأعلام**، ج ٧، ص ١٧٦، و**الموسوعة العربية الميسرة**، بإشراف: محمد شفيق غربال، دار إحياء التراث العربي، ج ٢، ص ١٦٦٤.

٧٧- انظر: **جامع البيان**، ج ١، ص ٤٨٥.

٧٨- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١١٩.

٧٩- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٣.

٨٠- انظر: **تفسير القرطبي**، ج١، ص ٢٨٢، وأبو حيان، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٣٥، وثناء الله المظهري، **التفسير المظهري**، ج ١، ص ٥١، و**تفسير الشوكاني**، ج ١، ص ٧٧.

٨١- انظر: **جامع البيان**، ج ١، ص ٤٨٥.

٨٢- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٢٠.

٨٣- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٣.

٨٤- انظر: **تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٢٨٢، و**البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٣٥، و**التفسير المظهري**، ج ١، ص ٥١.

٨٥- والخازن هو: علي بن محمد بن إبراهيم علاء الدين البغدادي المعروف بالخازن، عالم بالتفسير والحديث، من فقهاء =

القول الخامس: علّمه أسماء النجوم فقط. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن عطية، وأبو حيان الأندلسي(٨٧). وذكره العلامة الألوسي بصيغة التمريض(٨٨).

القول السادس: علّمه أسماء ما خلق في الأرض. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن الجوزي، والقرطبي، وأبو حيان الأندلسي، وثناء الله المظهري(٨٩).

القول السابع: علّمه جميع اللغات. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: البغوي، وأبو حيان الأندلسي، وثناء الله المظهري(٩٠). وذكره بصيغة التمريض: العلامة الخازن، والعلامة الألوسي(٩١).

القول الثامن: علّمه أسماءه تعالى. وممن ذكر هذا القول: العلامة أبو حيان الأندلسي، والقاضي ثناء الله المظهري، والعلامة الألوسي(٩٢).

القول التاسع: علّمه أسماء ذريته وأسماء الملائكة دون سائر أجناس الخلق. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري، والقرطبي، وأبو حيان الأندلسي، والشوكاني(٩٣).

= الشافعية. ولد ببغداد سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م، وتوفي بحلب سنة ٧٤١هـ/ ١٢٤١م. له تصانيف، منها: **لباب التأويل في معاني التنزيل** في التفسير، يعرف بـ: **تفسير الخازن**، و**عدة الأفهام في شرح عمدة الأحكام** في فروع الشافعية، و**مقبول المنقول** الجزء السابع منه، وهو في عشر مجلدات، في الحديث. الأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج ١، ص٢٦٧-٢٦٨، والزركلي، **الأعلام**، ج ٥، ص ٥.

٨٦- انظر: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج ١، ص ٣٦.

٨٧- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١١٩، و**البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٣٥.

٨٨- انظر: **روح المعاني**، ج ١، ص ٢٢٦.

٨٩- انظر على التوالي: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٣، و**الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٨٢، و**البحر المحيط**، ج ١، ص٢٣٥، و**التفسير المظهري**، ج ١، ص ٥٠.

٩٠- انظر على التوالي: **معالم التنزيل**، ج١، ص ١٠٣، و**البحر المحيط**، ج١، ص ٢٣٥، و**التفسير المظهري**، ج١، ص ٥١.

٩١- انظر على التوالي: **لباب التأويل**، ج ١، ص ٣٦، و**روح المعاني**، ج ١، ص ٢٢٦.

٩٢- انظر على التوالي: **البحر المحيط**، ج١، ص ٢٣٥، و**التفسير المظهري**، ج١، ص ٥١، و**روح المعاني**، ج١، ص ٢٢٦.

٩٣- انظر: على التوالي: **جامع البيان**، ج ١، ص ٤٨٥، و**الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٨٢، و**البحر المحيط**، ج ١، ص٢٣٥، و**فتح القدير**، ج ١، ص ٧٧. و**الشوكاني** هو: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني الصنعاني الشوكاني الحنبلي: فقيه مجتهد. ولد سنة ١١٧٣هـ بهجرة شوكان (من بلاد خولان، باليمن) ونشأ بصنعاء. وولي قضاءها سنة ١٢٢٩هـ ومات حاكما بها. وكان يرى تحريم التقليد. توفي ١٢٥٠هـ. له ١١٤ مؤلفا، منها: **فتح القدير** في التفسير، خمسة مجلدات، و**نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار**، و**البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**. انظر: الزركلي، **الأعلام**، ج ٦، ص ٢٩٨، والبغدادي، **هدية العارفين**، ج ١، ص ٧٧٥.

القول العاشر: علّمه صنعة كل شيء. وانفرد بذكر هذا القول العلامة البغوي[٩٤].

القول الحادي عشر: علّمه أسماء جميع ما خلق الله من أجناس المحدثات من جميع اللغات المختلفة التي يتكلم بها أولاد آدم اليوم. وانفرد بذكر هذا القول الإمام الرازي[٩٥].

القول الثاني عشر: علّمه أسماء الأجناس كلها. وانفرد بذكر هذا القول العلامة أبو بكر الجزائري[٩٦].

القول الثالث عشر: علّمه أسماء الأجناس والأنواع. وانفرد بذكر هذا القول الإمام القرطبي[٩٧]. ومن الجدير بالذكر أنه ذكره بصيغة التمريض.

القول الرابع عشر: علّمه أسماء الأجناس دون أنواعها. وانفرد بذكر هذا القول الإمام ابن الجوزي[٩٨].

القول الخامس عشر: علمه أسماء الأجناس وما يتعلق بها من المنافع. وذكر هذا القول الإمام القرطبي، والعلامة أبو حيان الأندلسي[٩٩].

القول السادس عشر: علمه صفات جميع الأشياء ونعوتها وخواصها. وممن ذكره من المفسرين: الرازي، والألوسي[١٠٠]. وذكره بصيغة التمريض: القاضي ثناء الله المظهري[١٠١].

٩٤- انظر: **معالم التنزيل**، ج ١، ص ١٠٣.

٩٥- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٣٩٨.

٩٦- انظر: **أيسر التفاسير**، ج١، ص ٤٢. وأبوبكر الجزائري هو: جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، ولد في قرية ليوا في ولاية بسكرة بالجزائر سنة ١٩٢١م، تلقى العلوم الابتدائية في بلده، ثم انتقل إلى بسكرة ودرس على مشائخها العلوم العقلية والنقلية، ثم ارتحل مع أسرته إلى المدينة المنورة، وقد بدأ الجلوس في حلقات العلماء والمشائخ في المسجد النبوي الشريف إلى أن حصل على إجازة من رئاسة القضاء بمكة المكرمة للتدريس، فأصبحت له حلقة لتدريس القرآن الكريم والحديث الشريف وغير ذلك، عمل مدرسا في بعض مدارس وزارة الأوقاف وفي دار الحديث بالمدينة المنورة، وكان من أوائل أساتذة الجامعة الإسلامية، له جهوده الدعوية في البلاد التي زارها. من مؤلفاته: **أيسر التفاسير**، و**منهاج المسلم**، و**رسائل الجزائري**. (الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ أبي بكر جابر الجزائري، وويكيبيديا الموسوعة الحرة على الإنترنيت).

٩٧- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٨٢.

٩٨- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٣.

٩٩- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٨٢، و**البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٣٥.

١٠٠- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٣٩٧، و**روح المعاني**، ج ١، ص ٢٢٥.

١٠١- انظر: **التفسير المظهري**، ج ١، ص ٥١.

القول السابع عشر: علّمه التسميات. وممن ذكره من المفسرين: أبو حيان الأندلسي، وإبراهيم بن إسماعيل الأبياري[١٠٢]، ووهبة الزحيلي[١٠٣].

القول الثامن عشر: علّمه جميع أسمائه المخزونة. وانفرد بذكر هذا القول العلامة أبو حيان الأندلسي[١٠٤].

القول التاسع عشر: علّمه الأسماء بلغة ثم وقع الاصطلاح من ذريته في سواها. وانفرد بذكر هذا القول العلامة أبو حيان الأندلسي[١٠٥].

التعليق

يتبين من القراءة في السطور السابقة أن هناك تسعة عشر قولا في المسألة، ومن الجدير بالذكر أن القول الثاني هو قريب من القول الأول[١٠٦]، الذي وقع اختيار الشيخ عليه، حيث اكتفى بذكره خلال تفسيره للآية، مما يدل على أنه هو المختار عنده بين سائر الأقوال، وهو: أنه علمه أسماء جميع الأشياء، فيقول: "...وكان تعليم آدم الأسماء كلها يعني تزويده بعلم الأشياء كلها"، ولا يخفى ما في هذا الأمر من الاستناد إلى أصل اللغة، ودلالة التعبير فيها على المدلول المتعارف عليه، وإليه ذهب المفسرون الكبار، أمثال: السمعاني[١٠٧]، والقرطبي[١٠٨]، وابن جزي[١٠٩]، وغيرهم[١١٠].

١٠٢- وإبراهيم بن إسماعيل الأبياري هو: مؤرخ، محقق، باحث من أهل طنطا، ولد بطنطا وتخرج بدار العلوم، اشتغل بدار الكتب المصرية، وعين مديرا لإدارة إحياء التراث فمراقبا عاما لشؤون مجلس النواب والشيوخ، عمل مدرسا للعربية بمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ثم كان مستشارا للمؤسسة الثقافية بوزارة الثقافة المصرية. ألف **الموسوعة القرآنية الميسرة** و**تاريخ القرآن**، و**رسالة الشاعر**، وغير ذلك. (انظر: الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة، وويكيبيديا الموسوعة الحرة على الإنترنيت).

١٠٣- انظر: **البحر المحيط**، ج١، ص٢٣٥، وإبراهيم بن إسماعيل الأبياري، **الموسوعة القرآنية**، مؤسسة سجل العرب، ١٤٠٥هـ ج٩، ص٧٠، **والتفسير المنير**، ج١، ص١٢٤. ووهبة الزحيلي هو: وهبة بن مصطفى الزحيلي (١٩٣٢ـ٢٠١٠م) كان أحد أبرز علماء أهل السنة والجماعة من سوريا في العصر الحديث، عضو خبير في مجمع الفقه الإسلامي في مكة وجدة والهند وأمريكا والسودان، ورئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه بجامعة دمشق، كلية الشريعة .حصل على جائزة أفضل شخصية إسلامية. من مؤلفاته: **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، و**الفقه الإسلامي وأدلته**، و**أصول الإيمان والإسلام**. (انظر: الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة، وويكيبيديا الموسوعة الحرة على الإنترنيت).

١٠٤- انظر: **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٣٥.

١٠٥- انظر: المصدر نفسه.

١٠٦- انظر: المصدر نفسه.

١٠٧- انظر: **تفسير القرآن**، ج ١، ص ٦٥.

الأدلـة

١- الحديث المرفوع: ويؤيد هذا المعنى الحديث المرفوع الذي رواه أنس رضي الله عنه[١١١] عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيءٍ..."[١١٢].

٢- الاحتجاج اللغوي: فاقترانه وتأكيده بلفظ "كُلهَا" يقتضي أنه علمه جميع الأسماء، ولم يخرج عن هذا شيء، لأنه هو اسم موضوع للإحاطة والعموم[١١٣].

ويؤيد هذا القول القواعد الترجيحية التالية:

١٠٨- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٨٢.

١٠٩- انظر: **تفسير ابن جزي**، ج ١، ص ٧٩.

١١٠- انظر: **تفسير الخازن**، ج١، ص٣٦، و**تفسير الشوكاني**، ج١، ص ٧٧، و**تفسير القاسمي**، ج ١، ص ٢٨٧، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ١/ ٤١، والشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، **تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، إشراف ومراجعة: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ج ١، ص ٢٩٩.

١١١- وأنس رضي الله عنه هو: أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي ابن النجار، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي النجاري البصري، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد المكثرين من الرواية عنه، دعا له النبي صلى الله عليه وسلم، أقام بالمدينة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد الفتوح، مات بالبصرة سنة ٩١هـ أو ٩٢هـ أو ٩٣هـ. انظر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج ١، ص ١٠٩ وما بعدها، وأبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد عز الدين بن الأثير، الشيباني الجزري، **أسد الغابة**، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج١، ص١٥١-١٥٢، وأبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج ١، ص ٢٧٥ وما بعدها.

١١٢- **صحيح البخاري**، كتاب التفسير، باب قول الله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ، ج ٦، ص ١٧، برقم: ٤٤٧٦، (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ومتن مرتبط بشرحيه **فتح الباري** لابن رجب ولابن حجر، مع الكتاب: شرح وتعليق: مصطفى ديب البغا، كالتالي: رقم الحديث (والجزء والصفحة) في ط البغا، يليه تعليقه، ثم أطرافه.

١١٣- انظر: **تفسير القرطبي**، ج١، ص ٢٨٢، و**تفسير الشوكاني**، ج ١، ص ٧٧، ومحمد الأمين الهرري، **تفسير حدائق الروح والريحان**، ج ١، ص ٢٩٩.

* "إذا ثبت الحديث وكان في معنى أحد الأقوال فهو مرجح له على ما خالفه"(١١٤).

* "القول الذي تؤيده قرائن في السياق مرجح على ما خالفه(١١٥).

ثالثًا: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١١٦).

في الآية ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: هل جميع الملائكة مأمورون بالسجود لآدم أم بعضهم؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "إن الله عز وجل أمر جميع الملائكة الذين يعملون على الأرض وعلى الكون الذي يتعلق بالأرض أن يسخروا أنفسهم لطاعة الإنسان. فقد كان الإنسان يعد ليكون الخليفة على هذه البقعة من الكون، فصدر الأمر الإلهي بأن يطيع كل من الملائكة في الدائرة التي سُخر لها في كل ما يريد الإنسان أن يوظف ما نعطيه من الإرادة والصلاحيات سواء في الخير أو في الشر، ونحن بإرادتنا نسمح له بأن يتصرف حسب إرادته..." (١١٧).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ يتضح أنه ذكر قولا واحدا في المسألة وركز عليه، مما يدل على أنه هو المختار عنده، إلا أنني وجدت أن للمفسرين قولين في المسألة أذكرهما على النحو التالي:

القول الأول: إن الملائكة المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام هم جميع الملائكة، على هذا كان الخطاب لجميع الملائكة. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري(١١٨)، وابن عطية(١١٩)، وابن الجوزي(١٢٠)، وغيرهم(١٢١).

١١٤- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٢٠٦.

١١٥- المصدر السابق: ج ١، ص ٢٩٩.

١١٦- سورة البقرة، الآية: ٣٤.

١١٧- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٦٤- ٦٥.

١١٨- انظر: **جامع البيان**، ج ٢١، ص ٢٣٨.

١١٩- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٢٣.

١٢٠- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٤.

١٢١- انظر: الرازي، **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٤٤٨، و**تفسير البيضاوي**، ج ٣، ص ٢١٠، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني، **مجموع الفتاوى**، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم، وساعده ابنه محمد، طبع بأمر الخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، تحت إشراف: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ج ٤، ص ٣٤٥، و**التفسير المظهري**، ج ٥، ص ٣٠١، و**تفسير الشوكاني**، ج ٤، ص ٥١٠، و**تفسير الألوسي**، ج ٧، ص ٢٨٩.

القول الثاني: إن الملائكة المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام هم بعض الملائكة، والذين هم ملائكة الأرض، وعلى هذا كان الخطاب لبعض الملائكة. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: السمعاني(١٢٢)، والبغوي(١٢٣)، وابن الجوزي(١٢٤)، وغيرهم(١٢٥).

وردّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية قائلا: "فمن قال: إنه لم يسجد له جميع الملائكة، بل ملائكة الأرض، فقد رد القرآن بالكذب والبهتان، وهذا القول ونحوه ليس من أقوال المسلمين واليهود والنصارى..."(١٢٦).

التعليق

يتضح من القراءة في المسألة السابقة أن المفسرين ذكروا قولين فيها، وركز الشيخ المودودي على واحد منهما (وهو القول الثاني)، حيث ذكره أثناء تفسيره للآية الكريمة السابقة، مما يدل على أنه هو المختار عنده، وهو: أن الملائكة المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام هم بعض الملائكة وهم ملائكة الأرض، فيقول: "إن الله عز وجل أمر جميع الملائكة الذين يعملون على الأرض وعلى الكون الذي يتعلق بالأرض أن يسخروا أنفسهم لطاعة الإنسان..."، إلأ أنني أرى أن القول الأول هو الأولى بالأخذ والاتباع، وذلك لأنه رأي أكثر المفسرين أمثال: الطبري(١٢٧)، والسمعاني(١٢٨)، والبغوي(١٢٩)، وغيرهم(١٣٠).

١٢٢- انظر: **تفسير القرآن**، ج ١، ص ٦٦.

١٢٣- انظر: **معالم التنزيل**، ج ١، ص ١٠٤.

١٢٤- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٤.

١٢٥- انظر: الرازي، **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٤٤٨، و**تفسير القاسمي**، ج ١، ص ٢٩٠، ومحمد الأمين الهرري، **تفسير حدائق الروح والريحان**، ج ١، ص ٣٠٧.

١٢٦- **مجموع الفتاوى**، ج ٤، ص ٣٤٦.

١٢٧- انظر: **جامع البيان**، ج ٢١، ص ٢٣٨.

١٢٨- انظر: **تفسير القرآن**، ج ١، ص ٦٦.

١٢٩- انظر: **معالم التنزيل**، ج ١، ص ١٠٤.

١٣٠- انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج٤، ص١٠٥، و**تفسير ابن عطية**، ج١، ص١٢٣، وابن الجوزي، **زاد المسير**، ج١، ص٥٤، والرازي، **التفسير الكبير**، ج٢، ص٤٤٨، و**تفسير البيضاوي**، ج٣، ص٢١٠، و**تفسير النسفي**، ج ٢، ص٨٨، وابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج ٤، ص ٣٤٥، و**تفسير الخازن**، ج ١، ص ٣٧، و**تفسير أبي السعود**، ج ٧، ص٢٣٦، و**التفسير المظهري**، ج٥، ص٣٠١، و**تفسير الشوكاني**، ج ٤، ص ٥١٠، و**تفسير الألوسي**، ج ٧، ص ٢٨٩، وعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج١، ص ٤٣٠، و**تفسير القاسمي**، ج ١، ص ٢٩٠، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ٢، ص ١٠١، ومحمد الأمين الهرري، **تفسير حدائق الروح والريحان**، ج ١، ص ٣٠٧، ونخبة من أساتذة التفسير، **التفسير الميسر**، ج ١، ص ٢٦٣.

الأدلة

القرآن: إن الملائكة المأمورين بالسجود هم جميع الملائكة، هذا هو الأصح، لأنه هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾(١٣١). ففي هذه الآية ثلاث صيغ مقررة للعموم وللاستغراق. فإن لفظ "الملائكة" صيغة الجمع والتي تفيد العموم، ثم "كُلهُمْ" من أبلغ العموم، وتوكيد معنوي لـ "الملائكة"، ثم "أَجْمَعُونَ" توكيد ثان للعموم(١٣٢).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية أثناء رده على سؤال في هذا الصدد: "بل سجد له جميع الملائكة كما نطق بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾(١٣٣)، فهذه ثلاث صيغ مقررة للعموم وللاستغراق، فإن قوله: "المَلَائِكَةُ" يقتضي جميع الملائكة، فإن اسم الجمع المعرف بالألف واللام يقتضي العموم كقوله: (رب الملائكة والروح) فهو رب جميع الملائكة. الثاني: "كُلهُمْ"، وفي هذا من أبلغ العموم. الثالث: قوله: "أَجْمَعُونَ" وهذا توكيد للعموم"(١٣٤).

وأضاف الإمام الرازي قائلا: "الثانِي: هو أنه تعالى استثنى إبليس منهم واستثناء الشخص الواحد منهم يدل على أن من عدا ذلك الشخص كان داخلا في ذلك الحكم"(١٣٥).

يقول الإمام ابن جزي أثناء كلامه عن قواعد الترجيح في مقدمة تفسيره: "تفسير بعض القرآن ببعض فإذا دل موضع من القرآن على المراد بموضع آخر حملناه عليه ورجحنا القول بذلك على غيره من الأقوال"(١٣٦).

ويؤيد هذا القول القاعدة الترجيحية:

* "القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عُدِم ذلك"(١٣٧).

١٣١- سورة الحجر، الآية: ٣٠.

١٣٢- انظر للمزيد من التفصيل: **تفسير السمعاني**، ج١، ص ٦٦، و**تفسير البغوي**، ج ١، ص ١٠٤، والرازي، **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٤٤٨، و**تفسير البيضاوي**، ج ٣، ص ٢١٠، وابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج ٤، ص ٣٤٥، ومحمود ابن عبد الرحيم صافي، **الجدول في إعراب القرآن الكريم**، دار الرشيد، دمشق، مؤسسة الإيمان، بيروت، ط٤، ١٤١٨هـ، ج ١٤، ص ٢٣٧، و محمد الأمين الهرري، **تفسير حدائق الروح والريحان**، ج ١، ص ٣٠٧.

١٣٣- سورة الحجر، الآية: ٣٠.

١٣٤- **مجموع الفتاوى**، ج ٤، ص ٣٤٥.

١٣٥- **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٤٤٨.

١٣٦- **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ١٩.

١٣٧- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٣١٢.

المسألة الثانية: ما معنى "السجود" في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ ﴾؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "...يمكن أن الآيات عبرت عن تسخير الله الملائكة لآدم بالسجود. ولا يمنع هذا من أن الله عز وجل لإبراز هذا الانقياد التام والطاعة المطلقة أمرهم بفعل ظاهري محسوس كذلك ـ أي السجود ـ وهذا فيما يبدو هو الأصح"(١٣٨).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ المودودي رحمه الله يتضح أنه ذكر قولين في معنى "السجود" في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ ﴾:

القول الأول: أن المراد بـ: "السجود" هنا الخضوع والتذلل والانقياد، ولم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض على وجه الحقيقة، أي: اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾(١٣٩). وهذا هو الجانب اللغوي للسجود. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن عطية(١٤٠)، والرازي(١٤١)، والقرطبي(١٤٢)، وغيرهم(١٤٣).

ومن الجدير بالذكر أن الإمام الرازي رد على هذا القول قائلًا: "وأما القول الثالث(١٤٤) فضعيف أيضًا لأن السجود لا شك أنه في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك لأن الأصل عدم التغيير"(١٤٥).

١٣٨- المصدر السابق، ج ١، ص ٦٥.

١٣٩- سورة الحج، الآية: ١٨.

١٤٠- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٢٤.

١٤١- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٤٢٧.

١٤٢- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٩٣.

١٤٣- انظر: **تفسير البيضاوي**، ج ١، ص ٧١، و**تفسير الشوكاني**، ج ١، ص ٧٨، وأبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، **تفسير الراغب الأصفهاني**، تحقيق ودراسة: محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، جامعة طنطا، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج ١، ص ١٤٨، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٣٠.

١٤٤- وهو الانقياد والخضوع.

١٤٥- **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٤٢٨.

القول الثاني: أن المراد بـ: "السجود" هنا وضع الجبهة على الأرض على وجه الحقيقة كالسجود المعتاد في الصلاة، وعلى هذا هو سجود تحية وتكرمة لآدم وطاعة لله لا سجود عبادة. وهذا هو المعنى الاصطلاحي والشرعي للسجود، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾(١٤٦). وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري(١٤٧)، وابن الجوزي(١٤٨)، والرازي(١٤٩)، وغيرهم(١٥٠).

ومن الجدير بالذكر أن القاضي ابن عطية، والعلامة الخازن ردا عليه. يقول القاضي ابن عطية: "ولا تدفع الآية أن يكونوا بلغوا غاية السجود"(١٥١). ويقول العلامة الخازن: "ولم يكن فيه وضع الجبهة على الأرض"(١٥٢).

وهناك قول ثالث ذكره: القاضي ابن العربي(١٥٣)، والإمام ابن الجوزي وهو: أن المراد بـ: "السجود" هنا الانحناء والميل المساوي للركوع(١٥٤).

التعليق

يتوصل من القراءة في موضوع سجود الملائكة لآدم أن المفسرين فيه ذهبوا إلى ثلاثة آراء:

الأول: أن المراد بهذا السجود هو الخضوع والتذلل. وقد اعتمدوا في ذلك على الجانب اللغوي للسجود.

الثاني: هو وضع الجبهة على الأرض على وجه الحقيقة تكرمة وتحية لآدم، وطاعة لله لا سجود عبادة.

١٤٦- سورة ص، الآية: ٧٢.

١٤٧- انظر: **جامع البيان**، ج ١، ص ٥١٢.

١٤٨- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٤.

١٤٩- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٢، ص ٤٢٧.

١٥٠- انظر: **تفسير البيضاوي**، ج١، ص ٧١، و**تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٢٩٣، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٤٧، و**تفسير ابن كثير**، ج٥، ص ١٦٧، و**تفسير الشوكاني**، ج١، ص ٧٨، و**تفسير الألوسي**، ج١، ص ٢٣٠.

١٥١- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٢٤.

١٥٢- انظر: **لباب التأويل**، ج ١، ص ٣٧.

١٥٣- وابن العربي هو: الإمام، العلامة، الحافظ، القاضي، أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي الأندلسي، الإشبيلي، المالكي، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٦٨م، صنف وجمع وبرع في العلوم، وهو أحد من بلغ رتبة الاجتهاد، توفي سنة ٥٤٣هـ. من مؤلفاته: **أحكام القرآن**، و**أمهات المسائل**، و**نزهة الناظر**. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢٠، ص١٩٧ وما بعدها، و**طبقات المفسرين** للأدنه وي، ج ١، ص ١٨٠-١٨١.

١٥٤- انظر: **أحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٧، و**زاد المسير**، ج ١، ص ٥٤.

وأصحاب هذا الرأي اعتمدوا على المعنى الاصطلاحي الشرعي للسجود. وهذا هو رأي جمهور المفسرين أمثال: الطبري(١٥٥)، والماوردي(١٥٦)، والسمعاني(١٥٧)، وغيرهم(١٥٨). وعليه وقع اختيار الشيخ المودودي رحمه الله مستندا في ذلك إلى رأي جمهور المفسرين في هذه المسألة، ولا شك أن بين المعنيين علاقة وصلة، فإن كان الجانب اللغوي يدل على الخضوع والتذلل الذي يعتبر بدايات حقيقية للسجود الاصطلاحي الشرعي، فإن المعنى الثاني الاصطلاحي والشرعي الذي يعني وضع الجبهة على الأرض يعتبر نهاية هذا الخضوع وغايته التي تتجلى فيه جميع المعاني الدالة على الخضوع والتذلل.

القول الثالث: الانحناء والميل المساوي للركوع. ولا دليل على هذا القول.

الأدلـة

١- **القرآن:** ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾(١٥٩).

٢- هو قول جمهور المفسرين: والجمهور على أن السجود كان بوضع الجبهة على الأرض على وجه الحقيقة تكرمة وتحية لآدم، وطاعة لله لا سجود عبادة. ولأن وضع الجبهة على الأرض هو الظاهر من السجود في العرف والشرع(١٦٠).

١٥٥- انظر: **جامع البيان**، ج ١، ص ٥١٢.

١٥٦- انظر: **النكت والعيون**، ج ١، ص ١٠١.

١٥٧- انظر: **تفسير القرآن**، ج ١، ص ٦٧.

١٥٨- انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص ١٢٦، وابن الجوزي، **زاد المسير**، ج١، ص ٥٤، والرازي، **التفسير الكبير**، ج٢، ص ٤٢٧، و**تفسير القرطبي**، ج١، ص ٢٩٣، و**تفسير النسفي**، ج١، ص ٨٠، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج١، ص ٢٤٧، و**تفسير ابن كثير**، ج٥، ص ١٦٧، و**تفسير أبي السعود**، ج١، ص ٨٧، و**تفسير الشوكاني**، ج١، ص٧٨، وعبد الكريم يونس الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، دار الفكر العربي، القاهرة، ج١، ص ٥٤، و**تفسير الطاهر بن عاشور**، ج١، ص ٤٢٢، ومحمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب، **أوضح التفاسير**، المطبعة المصرية ومكتبتها، ط٦، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م، ج١، ص٨، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج١، ص٤٣، ووهبة الزحيلي، **التفسير المنير**، ج ١، ص ١٣٢.

١٥٩- سورة الحجر، الآية: ٢٨-٢٩. يراجع للمزيد من التفصيل: أبو حيان، **البحر المحيط**، ج١، ص ٢٤٧، و**تفسير ابن كثير**، ج ٥، ص ١٦٧.

١٦٠- يراجع للمزيد من التفصيل: الرازي، **التفسير الكبير**، ج٢، ص ٤٢٧، و**تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٢٩٣، و**تفسير النسفي**، ج ١، ص ٨٠، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج١، ص ٢٤٧، و**تفسير الشوكاني**، ج١، ص ٧٨.

وتؤيده القواعد الترجيحية التالية:

* "تفسير جمهور السلف مقدم على كل تفسير شاذ"(١٦١).
* "إذا اختلفت الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية في تفسير كلام الله تعالى قدمت الشرعية"(١٦٢).

المسألة الثالثة: هل إبليس من الجن أو من الملائكة؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "ولا ينبغي أن يفهم خطأ فيزعم أنه كان من الملائكة. فقد صرح القرآن الكريم ـ في الآيات التي سوف تأتي ـ أنه كان من الجن، وهم خلق آخر من مخلوقات الله عز وجل غير الملائكة(١٦٣).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ المودودي رحمه الله يتضح أن إبليس كان من الجن وليس من الملائكة. فذكر قولين، حيث اختار قولا وردّ على قول آخر. ووجدت من خلال تتبعي للتفاسير أن المفسرين ذكروا هذين القولين على الصورة التالية:

القول الأول: إن إبليس كان من جنس الملائكة. وبناء على هذا القول الاستثناء يكون متصلا. وهذا القول منسوب إلى الجمهور، وهو اختيار الإمام الطبري(١٦٤). وممن ذكر هذا القول من المفسرين أيضًا: ابن عطية(١٦٥)، وابن الجوزي(١٦٦)، والبيضاوي(١٦٧)، وغيرهم(١٦٨).

القول الثاني: إن إبليس ليس من جنس الملائكة قط، بل كان من الجن بالنص، فهو أبو الجن كما أن آدم عليه السلام أبو البشر. وبناء على هذا القول يكون الاستثناء منقطعا. وممن ذكر هذا القول من المفسرين:

١٦١- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٢٨٨.

١٦٢- المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠١.

١٦٣- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٦٥-٦٦.

١٦٤- انظر: **جامع البيان**، ج ١، ص ٥٠٥.

١٦٥- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٢٤.

١٦٦- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٤.

١٦٧- انظر: **أنوار التنزيل**، ج ١، ص ٧١.

١٦٨- انظر: **تفسير القرطبي**، ج١، ص ٢٩٤، **وتفسير ابن جزي**، ج١، ص ٧٩، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج١، ص ٢٤٧، **وتفسير الشوكاني**، ج١، ص ٧٨.

ابن عطية[١٦٩]، وابن الجوزي[١٧٠]، والقرطبي[١٧١]، وغيرهم[١٧٢].

التعليق

يتبين من القراءة في تفسير هذه الآية أن المفسرين لهم فيها قولان؛ أحدهما: أن الاستثناء في هذه الآية متصل ينص على أن إبليس من جنس الملائكة. والآخر: أن الاستثناء ليس متصلا في الآية، وإنما هو استثناء منقطع ينص على أن إبليس ليس من جنس الملائكة وإنما هو من جنس الجن، ذلك المخلوق الخاص الذي خلقه الله سبحانه وتعالى من النار. وهذا هو الرأي الذي ذهب الشيخ المودودي إلى اختياره، وذلك استنادا إلى مجموعة من الأدلة المستنبطة من الآيات القرآنية التي تشبه هذه الآية وتتحدث عن إبليس وأصله. فمثلا يذكر الشيخ المودودي أن إبليس لا يمكن أن يكون من الملائكة بدليل أنه كان مخلوقا مختارا، له الاختيار في المآل الذي يحدده لنفسه، ولذلك اختار العصيان والخروج عن طاعة الرحمن حين أمره ربه بالسجود لآدم عليه السلام. أما الملائكة فإنهم مخلوق مجبول على الطاعة ليس له اختيار يبعثهم على التردد في الأوامر الإلهية كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿...وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١٧٤]، ولذلك كان منهم السجود فورا لآدم عليه السلام بعد ما أمروا به.

كما استند الشيخ المودودي في هذه المسألة إلى دليل آخر وهو أصل مادة الخِلقة التي خلق منها إبليس فهو خلق من النار التي وصفت في القرآن بعدة صفات، كلها تدل على النار المشتعلة الملتهبة التي لا دخان لها، فهو في هذه الصفة أيضًا يختلف عن الملائكة التي خلقهم الله عز وجل من النور. وأما ذكر إبليس في الآية الكريمة في شكل الاستثناء عن الملائكة الساجدين لآدم فهو كان من باب الشمول والعموم حتى تشمل الآية المخلوقات الأخرى غير الملائكة التي شملتهم هذه الآية فكان ذكر إبليس فيها من باب

١٦٩- انظر: **المحرر الوجيز**، ج١ ص ١٢٤.

١٧٠- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٤.

١٧١- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٢٩٤.

١٧٢- انظر: **تفسير ابن جزي**، ج١، ص ٧٩، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٤٨، و**تفسير ابن كثير**، ج٥، ص ١٦٧، و**تفسير الشوكاني**، ج ١، ص ٧٨.

١٧٣- سورة التحريم، الآية: ٦.

١٧٤- سورة النحل، الآية: ٤٩-٥٠.

هذا الشمول والعموم الذي كان المراد منه أن تندرج تلك المخلوقات الأخرى تحت الطاعة البشرية المتمثلة في قيادتها الأولى في شكل آدم عليه السلام[١٧٥]. وإليه ذهب الأئمة المفسرون أمثال: ابن كثير[١٧٦]، وعبد الكريم الخطيب[١٧٧]، والطاهر بن عاشور[١٧٨]، وغيرهم[١٧٩].

الأدلـة

١- **القرآن:** إن إبليس كان من الجن كما قال تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[١٨٠]، والجن خلق من نار، كما قال تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[١٨١].

ويقول الإمام ابن جزي في مقدمة تفسيره: "تفسير بعض القرآن ببعض فإذا دل موضع من القرآن على المراد بموضع آخر حملناه عليه ورجحنا القول بذلك على غيره من الأقوال"[١٨٢].

١٧٥- انظر: الهوامش ١٨ من سورة الحجر، و ٤٨ من سورة الكهف، و ٥٣ من سورة الذاريات، و١٥ من سورة الرحمن، في **تفهيم القرآن**.

١٧٦- انظر: **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص ٢٣٠، و ج ٥، ص ١٦٧.

١٧٧- انظر: **التفسير القرآني للقرآن**، ج١، ص ٥٦. وعبد الكريم الخطيب هو: عبد الكريم محمود يونس الخطيب، مجاهد ورجل مقاومة وتحرير ضد الاستخراب الفرنسي للمغرب، ولد بمدينة الجديدة المغربية في سنة ١٩٢١م وتوفي بالرباط سنة ٢٠٠٨م، تقلد العديد من الوزارات بعد الاستقلال منها: وزير الشؤون الإفريقية، ووزير التشغيل والشؤون الاجتماعية، كما شغل أيضًا منصب وزير الصحة، وكان أول رئيس لأول برلمان في المغرب، وهو أول طبيب جراحي بالمغرب، أسس حزب العدالة والتنمية ثم أسندت إليه رئاسته إلى وفاته. انظر: عبد الكريم الخطيب وتفسيره (ملتقى أهل التفسير)، وويكيبيديا الموسوعة الحرة على الإنترنيت.

١٧٨- انظر: **التحرير والتنوير**، ج١، ص ٤٢٣. والطاهر بن عاشور هو: محمد الطاهر بن عاشور: (١٢٩٦ـ ١٣٩٣هـ/ ١٨٧٩ ـ ١٩٧٣م): رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة، ومن أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. من أشهر مصنفاته: **التحرير والتنوير** في تفسير القرآن، و**مقاصد الشريعة الإسلامية** و**أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**. انظر: الزركلي، **الأعلام**، ج ٦، ص ١٧٤.

١٧٩- انظر: محمد عبد اللطيف الخطيب، **أوضح التفاسير**، ج١، ص ٨، ووهبة الزحيلي، **التفسير المنير**، ج١، ص ١٣٢.

١٨٠- سورة الكهف، الآية: ٥٠.

١٨١- سورة الأعراف، الآية: ١٢.

١٨٢- **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ١٩.

٢- **الحديث**: خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار، كما روت عائشة رضي الله عنها[١٨٣]، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارِج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم"[١٨٤].

٣- هو مروي عن التابعي الجليل الإمام الحسن البصري[١٨٥] بإسناد صحيح، وأما القول الأول فغالب رواياتها من الإسرائيليات، ومنها ما يقطع بكذبه، ولا تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وفي القرآن غنية عنها.

٤- دخل إبليس في خطابهم وإن لم يكن من عنصرهم، لأنه قد تشبه بالملائكة، وتوسم بأفعالهم.

يقول الحافظ ابن كثير: "والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم، لأنه ـ وإن لم يكن من عنصرهم ـ إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم، وذم في مخالفة الأمر"[١٨٦].

١٨٣- وعائشة رضي الله عنها هي: عائشة بنت أبي بكر الصديق، الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وأشهر نسائه، ولدت بعد المبعث بأربع سنين أو خمس، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين أو ثلاث سنين، وهي بنت ست أو سبع، ودخل بها بالمدينة، وهي بنت تسع، وما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم وحي وهو في لحاف امرأة من نسائه غيرها، كانت من أفقه الناس، وأحسنهم رأيا في العامة، نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة، روت عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا، وروى عنها عمر بن الخطاب وكثير من الصحابة والتابعين، توفيت سنة سبع وخمسين أو ثمان وخمسين. انظر: أبو عمر يوسف القرطبي، **الاستيعاب**، ج ٤، ص ١٨٨١ وما بعدها، وابن الأثير، **أسد الغابة**، ج ٦، ص ١٨٨ وما بعدها، وابن حجر، **الإصابة**، ج ٨، ص ٢٣١ وما بعدها.

١٨٤- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ٤، ص ٢٢٩٤، برقم: ٢٩٩٦.

١٨٥- والحسن البصري هو: الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصاري البصري، الفقيه القارئ الزاهد العابد، إمام عصره، ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ في خلافة عمر رضي الله عنه، وكان رأسا في العلم والعمل والقرآن وتفسير، والحديث والوعظ والحلم والعبادة والزهد والصدق والفصاحة والبلاغة والشجاعة، مات في سنة ١١٠هـ، له: **التفسير** رواه عنه جماعة، و**كتابه إلى عبد الملك بن مروان في الرد على القدرية**. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٤، ص ٥٦٣ وما بعدها، والصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج ١٢، ص ١٩٠-١٩١، والداودي، **طبقات المفسرين**، ج١، ص ١٥٠-١٥١.

١٨٦- نفس المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٠.

ويقول عبد الكريم الخطيب: "وننظر من جهة أخرى فنجد القرآن الكريم يتحدث عن "إبليس" بأنه كان من الجن ففسق عن أمر ربه.. كما جاء ذلك فى الآية الواردة فى سورة الكهف(١٨٧). فإبليس ـ على هذا ـ من عالم الجن، وأنه وحده الذي خرج عن أمر ربه، وأعلن هذا العصيان الوقاح!" (١٨٨).

ويقول الطاهر بن عاشور: "واستثناء إبليس من ضمير الملائكة في "فسجدوا" استثناء منقطع لأن إبليس لم يكن من جنس الملائكة قال تعالى في سورة الكهف إلا إبليس كان من الجن(١٨٩) ولكن الله جعل أحواله كأحوال النفوس الملكية بتوفيقٍ غلب على جبلته لتتأتى معاشرته بهم وسيره على سيرتهم فساغ استثناء حاله من أحوالهم في مظنة أن يكون مماثلا لمن هو فيهم"(١٩٠).

ويؤيد هذا القول القواعد الترجيحية:

* "القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عُدِم ذلك"(١٩١).
* "إذا ثبت الحديث وكان في معنى أحد الأقوال فهو مرجح على ما خالفه"(١٩٢).

رابعًا: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١٩٣).

مسألة: ما المراد بـ: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في الآية؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "أي، الإنسان عدو للشيطان، والشيطان عدو للإنسان. فعداوة الشيطان للإنسان واضحة، فهو يسعى دوما أن يحرضه على التمرد على أحكام الله عز وجل، وأن يزيغه عن طريق الطاعة ويرميه في مهاوي الدمار والهلاك. لكن ماذا تعني عداوة الإنسان للشيطان؟ تقتضي الإنسانية في حقيقتها عداوة الشيطان، فهي تعبير آخر عن هذه العداوة. لكن قد تطغى الشهوات، وينخدع الإنسان بوساوس العدو اللدود فيتخذه لنفسه صديقا، ولا شك أن هذه الصداقة لا تعني بأن العداوة قد انتهت

١٨٧- سورة الكهف، الآية: ٥٠.

١٨٨- **التفسير القرآني للقرآن**، ج ١، ص ٥٦.

١٨٩- سورة الكهف، الآية: ٥٠.

١٩٠- **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٤٢٣.

١٩١- **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٣١٢.

١٩٢- المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٦.

١٩٣- سورة البقرة، الآية: ٣٦.

وأصبح العدو صديقا، وإنما تعني أن أحد الأعداء غلب الآخر، وأن المهزوم وقع في فخ المنتصر"(١٩٤).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ يتضح أنه ذكر قولا واحدا في المراد بـ: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾، مما يدل على أنه هو المختار عنده، إلا أنني وجدت ستة أقوال أخرى للمفسرين في المراد بـ: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ في الآية المذكورة، أذكرها فيما يلي باختصار:

القول الأول: يعني ذرية آدم أعداء لذرية إبليس، إذ العداوة بين الإنس والجن. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن الجوزي(١٩٥)، والرازي(١٩٦)، والقرطبي(١٩٧)، وغيرهم(١٩٨).

القول الثاني: يعني بعض ذرية آدم أعداء لبعض. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: البيضاوي(١٩٩)، والنسفي(٢٠٠)، وأبو حيان الأندلسي(٢٠١)، وغيرهم(٢٠٢).

القول الثالث: يعني نفس الإنسان عدو له ولجوارحه. وذكر هذا القول وردّه من المفسرين: القرطبي و أبو حيان الأندلسي(٢٠٣).

القول الرابع: يعني آدم وحوا وإبليس بعضهم لبعض عدو. وممن ذكر هذا القول من المفسرين:

١٩٤- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٦٧.

١٩٥- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٥.

١٩٦- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٤٦٣.

١٩٧- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٣١٩.

١٩٨- انظر: **تفسير السعدي**، ج١، ص ٤٩، والسيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢هـ، ج ١، ص ٥٨، ومحمد عبد اللطيف الخطيب، **أوضح التفاسير**، ج ١، ص ٨، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج١، ص ٤٤، ووهبة الزحيلي، **التفسير المنير**، ج ١، ص ١٣٨، ومحمد الأمين الهرري، **تفسير حدائق الروح والريحان**، ج١، ص ٣٢٠.

١٩٩- انظر: **أنوار التنزيل**، ج ١، ص ٧٣.

٢٠٠- انظر: **مدارك التنزيل**، ج ١، ص ٨٢.

٢٠١- انظر: **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٦٤.

٢٠٢- انظر: **تفسير الجلالين**، دار الحديث، القاهرة، ط١، ج ١، ص ٩، ومحمد عبد اللطيف الخطيب، **أوضح التفاسير**، ج١، ص ٨.

٢٠٣- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٣٢٠، و**البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٦٤.

الماوردي[٢٠٤]، وابن الجوزي[٢٠٥]، والقرطبي[٢٠٦]، وغيرهم[٢٠٧].

القول الخامس: يعني آدم وحوا وإبليس والحية بعضهم لبعض عدو. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الماوردي والقرطبي[٢٠٨].

القول السادس: يعني آدم وحوا والحية بعضهم لبعض عدو. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الرازي، وأبو حيان الأندلسي[٢٠٩].

التعليق

يتبين من القراءة في الأسطر السابقة أن المفسرين ذكروا ستة أقوال في المسألة، والشيخ المودودي رحمه الله اختار القول الأول منها، وهو: أن ذرية آدم أعداء لذرية إبليس، فالعداوة الحقيقية هي بين الإنسان والشيطان، واستند الشيخ في رأيه إلى أن عداوة الشيطان للإنسان واضحة في وظيفته الأساسية المتمثلة في تحريض الإنسان على التمرد والعصيان، وأما عداوة الإنسان للشيطان فهو أن الإنسانية تقتضي في حقيقتها عداوته، إضافة إلى أنه قد ينخدع بوساوسه، لكن هذا لا يعني أنه صار صديقا له، بل معناه أن أحد الأعداء غلب الآخر، وإليه ذهب المفسرون أمثال: السعدي[٢١٠]، والسيد قطب[٢١١]،

٢٠٤- انظر: **النكت والعيون**، ج ١، ص ١٠٧.

٢٠٥- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٥٧.

٢٠٦- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٣١٩.

٢٠٧- انظر: أبو حيان، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٦٤، ونخبة من أساتذة التفسير، **التفسير الميسر**، ج ١، ص ٦.

٢٠٨- انظر: **النكت والعيون**، ج ١، ص ١٠٧، و**الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٣١٩.

٢٠٩- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٤٦٣، و**البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٦٤.

٢١٠- انظر: **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، ج ١، ص ٤٩. والسعدي هو: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي، النجدي، الحنبلي، مفسر، محدث، فقيه، أصولي، متكلم واعظ. ولد في عنيزة (نجد) سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها، توفي في عنيزة سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م، من مؤلفاته الكثيرة: **تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن** في ثماني مجلدات، و**طريق الوصول إلى العلم المأمول من الأصول**، و**الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين**. انظر: الزركلي، **الأعلام**، ج ٣، ص ٣٤٠، وعمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، ج١٣، ص ٣٩٦-٣٩٧.

٢١١- انظر: **في ظلال القرآن**، ج ١، ص ٥٨. والسيد قطب هو: سيد قطب بن إبراهيم، كاتب وأديب ومفكر إسلامي مصري، عضو سابق في جماعة الإخوان المسلمين، ورئيس سابق لقسم نشر الدعوة في الجماعة، ورئيس تحرير جريدة الإخوان المسلمين، ولد في قرية موشا في أسيوط سنة ١٩٠٦م، تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة، وبعد انضمامه إلى =

والصابوني(٢١٢)، وغيرهم(٢١٣).

الأدلـة

١- **القرآن:** يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٢١٤). فمعركة العداوة بين الإنسان والشيطان مستمرة إلى آخر الزمان، فإبليس عدو لآدم وحوا وذريتهما، وهم له أعداء.

ويؤيد هذا القول القاعدة القائلة:

* "القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عُدِم ذلك"(٢١٥).

خامسًا: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾(٢١٦).

= جماعة الإخوان المسلمين اتهم بالتآمر على نظام الحكم، وصدرالأمر بإعدامه، فأعدم سنة ١٩٦٦م. يعتبر السيد قطب من أكثر الشخصيات تأثيرا في الحركات الإسلامية التي وجدت في بداية خمسينيات القرن الماضي، كتبه متداولة مطبوعة منها: **في ظلال القرآن**، و**التصوير الفني في القرآن**، و**المستقبل لهذا الدين**، و**معالم في الطريق**. انظر: الزركلي، **الأعلام**، ج ٣، ص ١٤٧-١٤٨، وموسوعة ويكيبيديا الحرة، وموسوعة الإخوان المسلمين على الإنترنيت.

٢١٢- انظر: **صفوة التفاسير**، ج ١، ص ٤٤. والصابوني هو: محمد علي الصابوني، أحد أبرز علماء أهل السنة والجماعة في العصر الحديث، المتخصصين في علم التفسير، صاحب **صفوة التفاسير**. اختارته جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ليكون شخصية العام الإسلامية ٢٠٠٧م، لجهوده في خدمة الإسلام من خلال العديد من الكتب وخاصة تفسير القرآن. ولد الشيخ في مدينة حلب (السورية) ١٩٣٠م، تلقى تعليمه المبكر على يد والده، فحفظ القرآن، وتعلم علوم اللغة العربية والفرائض وعلوم الدين، كما تلقى تعليمه الابتدائي في المدارس الثانوية في حلب، وأتم دراسة التخصص بحصوله على شهادة العالمية في القضاء الشرعي عام ١٩٥٤م من الأزهر. بعد إنهاء الدراسة قام بمهنة التدريس في ثانويات حلب (سوريا) أستاذا لمادة الثقافة الإسلامية، وبكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة، وكلية التربية. ثم عينته جامعة أم القرى باحثا علميا في مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي. كما قام بعد ذلك بالعمل في رابطة العالم الإسلامي كمستشار في هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، من كتبه: **المواريث في الشريعة الإسلامية**، و**من كنوز السنة**، و**روائع البيان في تفسير آيات الأحكام**. انظر: موسوعة ويكيبيديا الحرة على الانترنت، والموقع الرسمي للمكتبة الشاملة على الإنترنت.

٢١٣- وهبة الزحيلي، **التفسير المنير**، ج١، ص١٣٨، ومحمد الأمين الهرري، **تفسير حدائق الروح والريحان**، ج١، ص ٣٢٠.

٢١٤- سورة فاطر، الآية: ٦.

٢١٥- **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٣١٢.

٢١٦- سورة البقرة، الآية: ٤٥.

مسألة: ما هو مرجع الضمير في "إِنهَا" في الآية الكريمة؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "يصعب على من لا يطيع أوامر الله عز وجل، ولا يؤمن بالآخرة أن يلتزم بالصلاة، بل إنه يرى فيها معاناة ومشقة لا توصف. أما الذي يخضع لأوامر مولاه سبحانه برغبة وشوق منه، ويؤمن بأن الموت يطارده كل حين ليأخذه للمثول بين يدي ربه فيصعب عليه ترك الصلاة، ولا يرى فيه مشقة ومعاناة..." (٢١٧).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ يتضح أنه ذكر قولا واحدا في مرجع ضمير "إِنهَا" في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾، ولم يذكر أقوالا أخرى، مما يدل على أنه هو القول المختار عنده، إلا أن الدراسة أثبتت لي أن هناك تسعة أقوال للمفسرين في المسألة، أذكرها على وجه الإجمال كالتالي:

القول الأول: يعود الضمير إلى الصلاة. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري(٢١٨)، وابن عطية(٢١٩)، وابن الجوزي(٢٢٠)، وغيرهم(٢٢١).

القول الثاني: يعود الضمير إلى المصدر وهو الاستعانة. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن عطية(٢٢٢)، وابن الجوزي(٢٢٣)، والرازي(٢٢٤)، وغيرهم(٢٢٥).

٢١٧- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٧٤.

٢١٨- انظر: **جامع البيان**، ج ١، ص ١٥.

٢١٩- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٣٧.

٢٢٠- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٦١.

٢٢١- انظر: الرازي، **التفسير الكبير**، ج٣، ص٤٩٠، و**تفسير القرطبي**، ج١، ص٣٧٣، و**تفسير البيضاوي**، ج١، ص٧٨، و**تفسير ابن جزي**، ج١، ص ٨٢، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٩٩، و**تفسير ابن كثير**، ج١، ص٢٥٣، و**التفسير المظهري**، ج ١، ص ٦٥، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٥٠.

٢٢٢- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٣٧.

٢٢٣- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٦١.

٢٢٤- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٤٩٠.

٢٢٥- انظر: **تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٣٧٣، و**تفسير البيضاوي**، ج ١، ص ٧٨، و**تفسير ابن جزي**، ج ١، ص ٨٢، و**التفسير المظهري**، ج ١، ص ٦٥، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٥١.

القول الثالث: يعود الضمير إلى العبادة التي تضمنها الصبر والصلاة. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن عطية، والقرطبي، وابن جزي(٢٢٦).

القول الرابع: يعود الضمير إلى إجابة محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الصبر والصلاة يدعو إليه. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الماوردي، والقرطبي، والألوسي(٢٢٧).

القول الخامس: يعود الضمير إلى الكعبة والقبلة، لأن الأمر بالصلاة إليها. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن الجوزي، والقرطبي(٢٢٨).

القول السادس: يعود الضمير إلى كل واحد من الخصلتين (الصبر والصلاة)، فالمعنى على التثنية، واكتفى بعودة الضمير على أغلبهما وهو الصلاة. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: القرطبي، وثناء الله المظهري، والألوسي(٢٢٩).

القول السابع: يعود الضمير إلى كل واحد منهما (الصبر والصلاة)، لكن حذف أحدهما اختصارا، أي: استعينوا بالصبر وإنه لكبير، وبالصلاة وإنها لكبيرة. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: البغوي، والقرطبي، والمظهري(٢٣٠).

القول الثامن: يعود الضمير إلى المذكورات المتقدمة المأمور بها والمنهي عنها من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾(٢٣١).

٢٢٦- انظر: **المحرر الوجيز**، ج١، ص١٣٧، و**الجامع لأحكام القرآن**، ج١، ص٣٧٣، و**التسهيل لعلوم التنزيل**، ج١، ص٨٢.

٢٢٧- انظر: **النكت والعيون**، ج١، ص١١٥، و**الجامع لأحكام القرآن**، ج١، ص٣٧٣، و**روح المعاني**، ج١، ص ٢٥١.

٢٢٨- انظر: **زاد المسير**، ج١، ص٦١، و**الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٣٧٣.

٢٢٩- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج١، ص٣٧٣، و**التفسير المظهري**، ج١، ص ٦٥، و**روح المعاني**، ج١، ص٢٥١.

٢٣٠- انظر: **معالم التنزيل**، ج١، ص١١٢، و**الجامع لأحكام القرآن**، ج١، ص٣٧٣، و**التفسير المظهري**، ج١، ص ٦٥.

٢٣١- سورة البقرة، الآيات: ٤٠-٤٥.

وممن ذكر هذا القول من المفسرين: البيضاوي(٢٣٢)، وثناء الله المظهري(٢٣٣)، والألوسي(٢٣٤).

القول التاسع: يعود الضمير إلى الصلاة وحدها، لكون الصبر داخلا فيها، فهو من أسلوب قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٢٣٥)، ولم يقل يرضوهما، لأن رضا الرسول صلى الله عليه وسلم داخل في رضا الله عز وجل. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: البغوي، والقرطبي، والألوسي(٢٣٦).

التعليق

يتضح من القراءة في الأسطر السابقة أن هناك تسعة أقوال في مرجع ضمير "إِنهَا" في الآية، وقد ذكرها المفسرون، والشيخ المودودي رحمه الله اختار القول الأول منها، حيث اقتصر بذكره، وهو: "أن الضمير عائد إلى الصلاة"، استنادا في رأيه إلى السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة، فيقول: "يصعب على من لا يطيع أوامر الله عز وجل، ولا يؤمن بالآخرة أن يلتزم بالصلاة، بل إنه يرى فيها معاناة ومشقة لا توصف..."، وإليه ذهب المفسرون أمثال: الطبري(٢٣٧)، وأبو حيان الأندلسي(٢٣٨)، وابن كثير(٢٣٩)، وغيرهم(٢٤٠).

٢٣٢- انظر: **أنوار التنزيل**، ج ١، ص ٧٨.

٢٣٣- انظر: **التفسير المظهري**، ج ١، ص ٦٥.

٢٣٤- انظر: **روح المعاني**، ج ١، ص ٢٥٠.

٢٣٥- سورة التوبة، الآية: ٦٢.

٢٣٦- انظر: **معالم التنزيل**، ج١، ص١١٢، **والجامع لأحكام القرآن**، ج١، ص ٣٧٣، **وروح المعاني**، ج ١، ص ٢٥٠.

٢٣٧- انظر: **جامع البيان**، ج ١، ص ١٥.

٢٣٨- انظر: **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٩٩.

٢٣٩- انظر: **تفسير القرآن العظيم**، ج ١، ص ٢٥٣.

٢٤٠- انظر: **تفسير الجلالين**، ج١، ص١١، **وتفسير الألوسي**، ج١، ص٢٥٠، **وتفسير السعدي**، ج١، ص٥١، وعبد الكريم الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، ج١، ص٨٠، ومحمد محمود الحجازي، **الواضح**، ج١، ص٣٦، وإبراهيم بن إسماعيل الأبياري، **الموسوعة القرآنية**، ج٩، ص٧٧، وطنطاوي، **الوسيط**، ج١، ص١١٣، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج١، ص ٤٨، ومحمد الأمين الهرري، **تفسير حدائق الروح والريحان**، ج ١، ص ٣٦٧.

الأدلـة

١- هو قول التابعي الجليل الإمام مجاهد[٢٤١].

٢- كون عودة الضمير إلى الصلاة هو ظاهر الكلام[٢٤٢]. ولا يجوز العدول عن الظاهر المفهوم من الكلام إلى غيره الذي لا دلالة على صحته[٢٤٣]. وضمير الغائب لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل[٢٤٤].

٣- خصصت الصلاة برد الضمير إليها، لعظم شأنها واستجماعها ضروبا من الصبر[٢٤٥].

ويؤيد هذا القول القواعد الترجيحية التالية:

* "تفسير السلف وفهمهم لنصوص الوحي حجة على من بعدهم"[٢٤٦].

* "لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب الرجوع إليه"[٢٤٧].

* "الأصل إعادة الضمير إلى أقرب مذكور ما لم يرد دليل بخلافه"[٢٤٨].

سادسًا: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢٤٩].

مسألة: ما المراد بـ: "الْعَالَمِينَ" في الآية؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "هذه إشارة إلى تلك الفترة التي كان بنو إسرائيل هم الذين يحملون الرسالة السماوية، والدعوة الصادقة دون غيرهم من أقوام البشر، فقد كانوا أئمة وهداة للعالمين.

٢٤١- ومجاهد هو: مجاهد بن جبر أبو الحجاج مولى السائب بن أبي السائب المخزومي المكي، الإمام، شيخ القراء والمفسرين، ولد سنة ٢١هـ في خلافة عمر بن الخطاب، أخذ عن ابن عباس القرآن والتفسير والفقه، حتى قرأ على ابن عباس القرآن ثلاث عرضات، وصاحب ابن عمر مدة كثيرة، قال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد، توفي سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع ومائة. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ٤، ص ٤٤٩ وما بعدها، والداودي، **طبقات المفسرين**، ج٢، ص٣٠٥ وما بعدها، والأدنه وي، **طبقات المفسرين**، ج١، ص١١. انظر: **تفسير ابن كثير**، ج١، ص٢٥٣.

٢٤٢- انظر: **تفسير الطبري**، ج١، ص١٥، وأبو حيان، **البحر المحيط**، ج١، ص ٢٩٩، و**تفسير الألوسي**، ج١، ص ٢٥٠.

٢٤٣- انظر: **تفسير الطبري**، ج ١، ص ١٥.

٢٤٤- أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٢٩٩.

٢٤٥- انظر: **تفسير البيضاوي**، ج ١، ص ٧٨، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٥٠.

٢٤٦- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٢٧١.

٢٤٧- المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٧.

٢٤٨- المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٢١.

٢٤٩- سورة البقرة، الآية: ٤٧.

وقد وكل الله عز وجل إليهم مسؤولية دعوة الناس إلى دين الله وتطبيق أحكامه وقوانينه"(٢٥٠).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ يتضح أنه ذكر قولا واحدا في المراد بـ: "الْعَالَمِينَ" في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، واقتصار ذكره على قول واحد يدل على أنه هو المختار لديه، إلا أنني وجدت خلال تتبعي للتفاسير ثلاثة أقوال للمفسرين في الآية المذكورة، أذكرها باختصار على النحو التالي:

القول الأول: فضلكم على عالمي زمانكم. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري(٢٥١)، وابن الجوزي(٢٥٢)، والرازي(٢٥٣)، وغيرهم(٢٥٤).

القول الثاني: فضلكم على جميع العالمين بوجه ما من التفضيل بما جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين، وهذا لا يقتضي تفضيلهم على جميع العالمين في جميع الأمور. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الرازي، وأبو حيان الأندلسي، والشوكاني(٢٥٥).

القول الثالث: فضلكم على الجم الغفير من الناس، وعلى هذا يراد به الكثير لا الكل. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: أبو حيان الأندلسي، وثناء الله المظهري، والشوكاني(٢٥٦).

التعليق

يتبين من القراءة في السطور السابقة أن هناك ثلاثة آراء في المسألة، ووقع اختيار الشيخ المودودي على الأول منها، وهو: "أن المراد به تفضيلهم على غيرهم في تلك الفترة التي كانوا يحملون فيها الرسالة السماوية والدعوة الربانية، وكانوا أئمة وهداة"، فيقول: "هذه إشارة إلى تلك الفترة التي كان بنو إسرائيل هم

٢٥٠- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٧٤.

٢٥١- انظر: **جامع البيان**، ج ١، ص ٢٤.

٢٥٢- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٢٦.

٢٥٣- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٤٩٣.

٢٥٤- **تفسير القرطبي**، ج١، ص٣٧٦، و**تفسير البيضاوي**، ج١، ص٧٨، و**تفسير ابن جزي**، ج١، ص٨٢، وأبو حيان، **البحر المحيط**، ج١، ص ٣٠٦، و**تفسير ابن كثير**، ج١، ص٢٥٥، و**التفسير المظهري**، ج١، ص٦٦، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٥٢.

٢٥٥- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٣، ص٤٩٣، و**البحر المحيط**، ج ١، ص ٣٠٦، و**فتح القدير**، ج ١، ص ٩٦.

٢٥٦- انظر: **البحر المحيط**، ج ١، ص ٣٠٦، و**التفسير المظهري**، ج ١، ص ٦٦، و**فتح القدير**، ج ١، ص ٩٦.

الذين يحملون الرسالة السماوية والدعوة الصادقة دون غيرهم من أقوام البشر، فقد كانوا أئمة وهداة للعالمين. وقد وكل الله عز وجل إليهم مسؤولية دعوة الناس إلى دين الله وتطبيق أحكامه وقوانينه"، وإليه ذهب جمهور المفسرين سلفا وخلفا من أمثال: الطبري(٢٥٧)، والسمعاني(٢٥٨)، والبغوي(٢٥٩)، وغيرهم(٢٦٠).

الأدلة:

١- **القرآن:** فضلكم على عالمي زمانكم بما منحكم من الملك والرسل والكتب ما لم يؤت أحدا من العالمين، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٢٦١).

يقول الحافظ ابن كثير بعد سرد القول الأول: "ويجب الحمل على هذا، لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى خطابا لهذه الأمة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٢٦٢).

٢- **الحديث:** فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن بني إسرائيل لم يكونوا مفضلين على أمة محمد

٢٥٧- انظر: **جامع البيان**، ج ١، ص ٢٤.

٢٥٨- انظر: **تفسير القرآن**، ج ١، ص ٧٥.

٢٥٩- انظر: **معالم التنزيل**، ج ١، ص ١١٢.

٢٦٠- انظر: ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج ١، ص ٢٦. **وتفسير البيضاوي**، ج ١، ص ٧٨، **وتفسير الخازن**، ج ١، ص٤٣، **وتفسير ابن جزي**، ج١، ص٨٢، **وتفسير ابن كثير**، ج١، ص٢٥٥، **وتفسير الجلالين**، ج١، ص١١، **وتفسير أبي السعود**، ج١، ص٩٨، **وتفسير الألوسي**، ج١، ص٢٥٢، وعبد الكريم الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، ج١، ص٨٢، ومحمد محمود الحجازي، **التفسير الواضح**، ج١، ص٣٦، وإبراهيم بن إسماعيل الأبياري، **الموسوعة القرآنية**، ج ٩، ص ٧٨، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ١، ص ٤٨، والجزائري، **أيسر التفاسير**، ج ١، ص ٥٢، ووهبة الزحيلي، **التفسير المنير**، ج ١، ص ١٥٤، ونخبة من أساتذة التفسير، **التفسير الميسر**، ج ١، ص ٧، ومحمد الأمين الهرري، **تفسير حدائق الروح والريحان**، ج ١، ص ٣٦٩، وجماعة من علماء التفسير، **المختصر في تفسير القرآن الكريم**، إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط٣، ١٤٣٦هـ، ج ١، ص ٧.

٢٦١- سورة المائدة، الآية: ٢٠.

٢٦٢- سورة آل عمران، الآية: ١١٠، **تفسير القرآن العظيم**، ج ١، ص ٢٥٥.

صلى الله عليه وسلم. ففي **سنن الترمذي** أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٢٦٣) قال: "أنتم تتمون سبعين أمةً أنتم خيرها وأكرمها على الله(٢٦٤).

٣- هذا القول مروي عن عدد من العلماء والتابعين(٢٦٥)، وقال به جمهور المفسرين أيضًا.

ويؤيد هذا القول القواعد الترجيحية التالية:

* "القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عُدِم ذلك"(٢٦٦).
* "إذا ثبت الحديث وكان في معنى أحد الأقوال فهو مرجح له على ما خالفه"(٢٦٧).
* "تفسير السلف وفهمهم لنصوص الوحي حجة على من بعدهم"(٢٦٨).
* "تفسير جمهور السلف مقدم على كل تفسير شاذ"(٢٦٩).

سابعًا: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(٢٧٠).

مسألة: ما المراد بـ: "بَلَاءٌ" في الآية؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "فقد كان هذا ابتلاء لكم واختبارا لمعادنكم، هل ستخرجون من ناره ذهبا صافيا أم أن لظاه سيحرقكم وتصبحون فحما أسود. والمعجزة كذلك كانت لكم اختبارا، هل

٢٦٣- سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

٢٦٤- يقول الإمام الترمذي: "هذا حديث حسن، وقد روى غير واحد هذا الحديث عن بهز بن حكيم نحو هذا، ولم يذكروا فيه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)"، **سنن الترمذي**، ج ٥، ص ٢٢٦، برقم: ٣٠٠١، باب: ومن سورة آل عمران. الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، **سنن الترمذي**، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م. هذا الحديث ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره وقال عقبه: "وهو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذي. **تفسير القرآن العظيم**، ج٢، ص٩٤. ثم قال: "والأحاديث في هذا كثيرة". المصدر السابق، ج١، ص٢٥٥.

٢٦٥- من هؤلاء: أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد. انظر: **تفسير ابن كثير**، ج١، ص٢٥٥.

٢٦٦- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٣١٢.

٢٦٧- المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٦.

٢٦٨- المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧١.

٢٦٩- المصدرالسابق، ج ١، ص ٢٨٨.

٢٧٠- سورة البقرة، الآية: ٤٩.

تصبحون عبيدا شاكرين لله عز وجل الذي نجاكم من كيد فرعون وبطشه بهذه المعجزة الفريدة أم أنكم تعصونه وتجحدون فضله"(٢٧١).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ يتضح أنه ذكر قولا واحدا في المراد بـ: "بَلَاءٌ" في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، إلا أنني وجدت ثلاثة آراء في المسألة، أذكرها باختصار على النحو التالي:

القول الأول: النقمة والمصيبة، والمعنى: وفي سومهم سوء العذاب من التذبيح والاستحياء نقمة من ربكم. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن عطية(٢٧٢)، وابن الجوزي(٢٧٣)، والرازي(٢٧٤)، وغيرهم(٢٧٥).

القول الثاني: النعمة والإحسان، والمعنى: وفي إنجائكم من آل فرعون نعمة من ربكم. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري(٢٧٦)، وابن عطية(٢٧٧)، وابن الجوزي(٢٧٨)، وغيرهم(٢٧٩).

القول الثالث: النقمة والنعمة، والمعنى: وفي جملة الأمر من نقمة العذاب ونعمة الإنجاء اختبار صبركم وشكركم من ربكم. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: القرطبي، والبيضاوي، والألوسي(٢٨٠).

٢٧١- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٧٥.

٢٧٢- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٤١.

٢٧٣- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٦٣.

٢٧٤- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٥٠٧.

٢٧٥- انظر: **تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٣٨٧، **وتفسير البيضاوي**، ج ١، ص ٧٩، **وتفسير ابن كثير**، ج ١، ص ٢٥٩، **والتفسير المظهري**، ج ١، ص ٦٧، **وتفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٥٥، **وتفسير الشوكاني**، ج ١، ص ٩٨.

٢٧٦- انظر: **جامع البيان**، ج ٢، ص ٤٨.

٢٧٧- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٤١.

٢٧٨- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٦٣.

٢٧٩- انظر: الرازي، **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٥٠٧، **وتفسير القرطبي**، ج ١، ص ٣٨٧، **وتفسير البيضاوي**، ج ١، ص٧٩، **وتفسير ابن كثير**، ج ١، ص ٢٥٩، **والتفسير المظهري**، ج ١، ص ٦٧، **وتفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٥٥، **وتفسير الشوكاني**، ج ١، ص ٩٨.

٢٨٠- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٣٨٧، **وأنوار التنزيل**، ج ١، ص ٧٩، **وروح المعاني**، ج ١، ص ٢٥٥.

التعليق

يتوصل من القراءة في السطور السابقة أن هناك ثلاثة آراء في المسألة، والشيخ المودودي اختار الرأي الثالث منها مما يتبين من عبارته، وهو: أن "بَلَاءٌ" استخدم هنا بمعنييه، لأن "البلاء" هو الاختبار والامتحان، والاختبار قد يكون بالنعمة ليختبر به شكر العبد، وقد يكون بالنقمة ليختبر به صبره، كما قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٢٨١)، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(٢٨٢)، وهو صحيح من ناحية اللغة كما ذكره المفسرون(٢٨٣)، أي: "أن في صنيع آل فرعون من سومهم سوء العذاب اختبار وابتلاء صبركم، وفي إنجائكم من آل فرعون اختبار وابتلاء شكركم"، فيقول: "فقد كان هذا ابتلاء لكم واختبارا لمعادنكم، هل ستخرجون من ناره ذهبا صافيا أم أن لظاه سيحرقكم وتصبحون فحما أسود. والمعجزة كذلك كانت لكم اختبارا، هل تصبحون عبيدا شاكرين لله عز وجل الذي نجاكم من كيد فرعون وبطشه بهذه المعجزة الفريدة أم أنكم تعصونه وتجحدون فضله". إلا أنني أرجح الرأي الأول لأدلة أذكرها فيما يلي، وإلى هذا الرأي الأول ذهب المفسرون أمثال: الطاهر بن عاشور، ومحمد عبد اللطيف الخطيب(٢٨٤)، وأبو بكر الجزائري(٢٨٥).

الأدلة

١- نسب المفسرون أمثال: ابن عطية، والقرطبي، والشوكاني هذا القول إلى الجمهور. يقول القاضي

٢٨١- سورة الأعراف، الآية: ١٦٨.

٢٨٢- سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

٢٨٣- انظر على سبيل المثال: **تفسير الطبري**، ج ٢، ص ٤٩، و**تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٣٨٧، وأبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج ١، ص ٣٠٥.

٢٨٤- ومحمد عبد اللطيف الخطيب هو: محمد محمد عبد اللطيف الخطيب، ولد في القاهرة سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩٠٠م، وتوفي فيها سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، عاش في مصر ولبنان والسعودية، تخرج من مدرسة الحسين فأصبح واحدا من علماء عصره في التفسير وعلوم القرآن الكريم والعلوم الإسلامية الأخرى، وعمل منذ صغره في مطبعة والده (المطبعة المصرية) التي تخصصت في طباعة القرآن الكريم، كان عضوا في الجمعيات والنقابات المختلفة، منها: نقابة الأشراف، وجماعة القرآن الكريم، وجماعة الإخوان المسلمين. من مؤلفاته: **أوضح التفاسير**، و**الفرقان في جمع وتدوين القرآن**، و**هذا هو الحق**. (انظر: الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة على الإنترنيت).

٢٨٥- انظر: **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٤٩٣، و**أوضح التفاسير**، ج ١، ص ١٠، و**أيسر التفاسير**، ج ١، ص ٥٤.

ابن عطية: "وقال جمهور الناس: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هنا في الشر، والمعنى وفي الذبح مكروه وامتحان"(٢٨٦). وتابعه في ذلك الإمام القرطبي قائلا: "وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه والبلاء هنا في الشر، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان"(٢٨٧). ويقول الإمام الشوكاني: "فرجح الجمهور الأول"(٢٨٨).

٢- هو المعنى المتبادر إلى الذهن. يقول العلامة الألوسي بعد إيراد الأقوال المختلفة في معنى "بلاء": "ويرجح الأول التبادر"(٢٨٩).

٣- القرينة في السياق: يراد بـ: "بلاء" هنا المعنى الأول بدليل قوله "عظيم". يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: "وأشهر استعماله إذا أطلق أن يكون للشر فإذا أرادوا به الخير احتاجوا إلى قرينة أو تصريح... فيطلق غالبا على المصيبة التي تحل بالعبد لأن بها يختبر مقدار الصبر والأناة والمراد هنا المصيبة بدليل قوله عظيم"(٢٩٠).

ويؤيد هذا القول القواعد الترجيحية التالية:

* "تفسير جمهور السلف مقدم على كل تفسير شاذ"(٢٩١).
* "لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب الرجوع إليه"(٢٩٢).
* "القول الذي تؤيده قرائن في السياق مرجح على ما خالفه"(٢٩٣).

ثامنًا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢٩٤).

٢٨٦- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٤١.

٢٨٧- **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٣٨٧.

٢٨٨- انظر: **فتح القدير**، ج ١، ص ٩٨.

٢٨٩- **روح المعاني**، ج ١، ص ٢٥٥.

٢٩٠- **التحرير والتنوير**، ج ١، ص ٤٩٣.

٢٩١- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٢٨٨.

٢٩٢- المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٧.

٢٩٣- المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٩.

٢٩٤- سورة البقرة، الآية: ٥٤.

مسألة: من المأمور بقتل نفسه في الآية؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "أي: اقتلوا من بينكم كل من اتخذ العجل إلها من دون الله وعَبدَه"(٢٩٥).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ المودودي رحمه الله أنه ذكر قولا واحدا في المأمور بقتل نفسه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وهذا هو المختار عنده، إلا أنني وجدت أن المفسرين ذكروا الأقوال الثلاثة التالية في هذه المسألة:

القول الأول: المأمور بقتل نفسه الجميع، أي: ليقتل بعضكم بعضا. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن الجوزي، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيان الأندلسي(٢٩٦).

القول الثاني: المأمور بقتل نفسه العابدين من عبدة العجل فحسب، وذكر هذا القول من المفسرين: ابن الجوزي(٢٩٧).

القول الثالث: المأمور بقتل نفسه هم العابدون فقط، أي: ليقتل غير العابدين الأبرياء العابدين المجرمين من إخوانكم ومن أهلكم. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن الجوزي(٢٩٨)، والقرطبي(٢٩٩)، والبيضاوي(٣٠٠)، وغيرهم(٣٠١).

التعليق

يتبين من القراءة في الأسطر السابقة أن هناك ثلاثة أقوال للمفسرين والشيخ المودودي رحمه الله اختار

٢٩٥- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٧٦.

٢٩٦- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٦٦، و**الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٤٠١، و**أنوار التنزيل**، ج ١، ص ٨١، و**البحر المحيط**، ج ١، ص ٣٣٥.

٢٩٧- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٦٦.

٢٩٨- المصدر السابق، ج ١، ص ٦٦.

٢٩٩- انظر: **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٤٠١.

٣٠٠- انظر: **أنوار التنزيل**، ج ١، ص ٨١.

٣٠١- انظر: أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٣٣٥، وثناء الله المظهري، **التفسير المظهري**، ج ١، ص ٧١.

القول الثالث حيث ذكره أثناء تفسيره للآية الكريمة، وهو: أن الله عز وجل أمر أن يقتل غير العابدين (الأبرياء) العابدين للعجل (المجرمين)، فيقول: "أي: اقتلوا من بينكم كل من اتخذ العجل إلها من دون الله وعبده"، وإليه ذهب أكثر المفسرين أمثال: البغوي(٣٠٢)، والخازن(٣٠٣)، وثناء الله المظهري(٣٠٤)، وغيرهم(٣٠٥).

الأدلة

١- هو قول جمهور المفسرين.

٢- أسلوب القرآن ومعهود استعماله: استخدم القرآن الكريم كلمة: "نفس" بمعنى الأخوة، والأهل، فأخو الرجل كأنه نفسه، وأهل الرجل كأنه نفسه، كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾(٣٠٦)، وكقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾(٣٠٧).

ويؤيد هذ القول القواعد الترجيحية التالية:

* "تفسير جمهور السلف مقدم على كل تفسير شاذ"(٣٠٨).

* حمل معاني كلام الله على الغالب من أسلوب القرآن ومعهود استعماله أولى من الخروج به عن ذلك"(٣٠٩).

تاسعًا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِئِينَ﴾(٣١٠).

مسألة: ما المراد بـ: "قِرَدَةً خَاسِئِينَ" في الآية؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "...وقد اختلف الناس في كيفية انقلابهم إلى القرود. فيرى البعض

٣٠٢- انظر: **معالم التنزيل**، ج ١، ص ١١٨.

٣٠٣- انظر: **لباب التأويل**، ج ١، ص ٤٦.

٣٠٤- انظر: **التفسير المظهري**، ج ١، ص ٧١.

٣٠٥- انظر: **تفسير القاسمي**، ج ١، ص ٣٠٧، و**تفسير المراغي**، ج ١، ص ١٢٠، ومحمد عبد اللطيف الخطيب، **أوضح التفاسير**، ج ١، ص ١٠، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ١، ص ٥٠، ووهبة الزحيلي، **التفسير المنير**، ج ١، ص ١٦٠، والجزائري، **أيسر التفاسير**، ج ١، ص ٥٦.

٣٠٦- سورة الحجرات، الآية: ١١.

٣٠٧- سورة التوبة، الآية: ١٢٨، انظر: أبو حيان، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٣٣٥، و**تفسير المراغي**، ج ١، ص ١٢٠.

٣٠٨- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٢٨٨.

٣٠٩- المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٢.

٣١٠- سورة البقرة، الآية: ٦٥.

بأنهم مسخوا وأصبحت أشكالهم وأجسامهم كالقرود تماما. في حين يرى الآخرون بأن صفاتهم تبدلت وأصبحوا كالقرود في الصفات دون الشكل. لكن مما يظهر لي من ألفاظ القرآن وطريقة عرض الصورة أن هذا المسخ لم يكن في الأخلاق وإنما كان في أشكالهم وأجسامهم. فأنا أرى ـ والله أعلم ـ أن عقولهم بقيت على ما كانت عليه وأن أجسامهم مسخت قرودا"(٣١١).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ المودودي رحمه الله يتضح أنهم مسخوا مسخا حقيقيا صوريا بجعل أشكالهم وأجسامهم كالقرود تماما. فذكر قولين، حيث اختار قولا ورد على قول آخر. ووجدت خلال تتبعي للتفاسير أن المفسرين ذكروا هذين القولين في المسألة، أذكرهما بإجمال على النحو التالي:

القول الأول: مسخ الله المعتدين في السبت مسخا حقيقيا، حيث جعلهم قردة على الحقيقة، وذلك بجعل أشكالهم وأجسامهم قردة صاغرين منبوذين، مع بقاء الإدراك الإنساني. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن عطية(٣١٢)، وابن الجوزي(٣١٣)، والرازي(٣١٤)، وغيرهم(٣١٥).

القول الثاني: مسخهم الله مسخا معنويا، حيث مسخت قلوبهم فقط وذلك برد قلوبهم أو أفهامهم كقلوب القردة أو أفهامها مع بقاء الهيكل الإنساني، فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣١٦). وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الرازي(٣١٧)، والبيضاوي(٣١٨)، وابن

٣١١- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٨٣.

٣١٢- انظر: **تفسير ابن عطية**، ج ١، ص ١٦٠.

٣١٣- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٧٤.

٣١٤- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٥٤١.

٣١٥- انظر: **تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٤٤٠، و**تفسير البيضاوي**، ج ١، ص ٨٥، و**البحر المحيط**، ج ١، ص ٣٩٧، و**تفسير الشوكاني**، ج ١، ص ١١٣، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٨٣، والعلامة أشرف علي التهانوي، **تفسير بيان القرآن**، مكتبة الحسن، لاهور، ج ١، ص ٣٨.

٣١٦- سورة الجمعة، الآية: ٥.

٣١٧- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٥٤١.

٣١٨- انظر: **تفسير البيضاوي**، ج ١، ص ٨٥.

كثير(٣١٩)، وغيرهم(٣٢٠). وممن ذكره بصيغة التمريض من المفسرين: ابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وأبو حيان الأندلسي(٣٢١).

التعليق

يتبين من القراءة في السطور السابقة في المراد بقوله تعالى: "قِرَدَةً خَاسِئِينَ" أن الشيخ المودودي رحمه الله يرى أنهم مسخوا مسخا حقيقيا صوريا بجعل أشكالهم وأجسامهم كالقرود تماما، وأما ما روي عن مجاهد فقد ذكره البعض بصيغة التمريض وردّ عليه عدد آخر من المفسرين، والشيخ المودودي رحمه الله رجح أن المسخ كان حقيقيا صوريا، لأنه يظهر من ألفاظ القرآن، وطريقة عرضه للصورة عبر السياق القرآني الخاص، وإليه ذهب جمهور المفسرين أمثال: الثعلبي(٣٢٢)، والبغوي(٣٢٣)، وابن عطية(٣٢٤)، وغيرهم(٣٢٥).

٣١٩- انظر: **تفسير ابن كثير**، ج ١، ص ٢٨٩ ومابعدها.

٣٢٠- انظر: **تفسير الشوكاني**، ج ١، ص ١١٣- ١١٤، **وتفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٨٣، **وتفسير الطاهر بن عاشور**، ج ١، ص ٥٤٤.

٣٢١- انظر على التوالي: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٦١، **وزاد المسير**، ج ١، ص ٧٤، **والجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص٤٤٣، **والبحر المحيط**، ج ١، ص ٣٩٧.

٣٢٢- انظر: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أبو إسحاق، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: الإمام أبو محمد بن عاشور، المراجعة والتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٢١٢،.

٣٢٣- انظر: **معالم التنزيل**، ج ١، ص ١٢٦-١٢٧.

٣٢٤- **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٦١.

٣٢٥- انظر: ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج ١، ص ٧٤، والرازي، **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٥٤١ ، **وتفسير القرطبي**، ج ١، ص ٤٤٠، **وتفسير البيضاوي**، ج ١، ص ٨٥، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٣٩٧، **وتفسير الشوكاني**، ج ١، ص ١١٣، **وتفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٨٣، **وتفسير القاسمي**، ج ١، ص ٣٢٣، وأشرف علي التهانوي، **تفسير بيان القرآن**، ج ١، ص ٣٨ ، وعبد الكريم الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، ج ١، ص ٩٤، **وتفسير الطاهر بن عاشور**، ج١، ص ٥٤٤، ومفتي محمد شفيع، **معارف القرآن** (بالأردوية)، اشاعت مكرر، ٢٠٠١م، سروسز بك، جي ايج كيو، ج١، ص ٢٤٣، ومحمد إدريس كاندهلوي، **معارف القرآن** (بالأردوية)، مكتبة عثمانية، بيت الحمد، جامعة أشرفية، لاهور، ط٢، ١٩٨٢م، ج١، ص ١٥٠-١٥١. ونخبة من أساتذة التفسير، **التفسير الميسر**، ج ١، ص ١٠، والجزائري، **أيسر التفاسير**، ج ١، ص ٦٦، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج ١، ص٥٦، والشيخ أبو زكريا عبد السلام الرستمي، **تفسير القرآن الكريم**، (بلغة البشتو)، دار السلام، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٤٠.

الأدلـة

١- **القرآن**: يشهد له قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾(٣٢٦).

ويقول الإمام ابن جزي في مقدمة تفسيره: "تفسير بعض القرآن ببعض فإذا دل موضع من القرآن على المراد بموضع آخر حملناه عليه ورجحنا القول بذلك على غيره من الأقوال"(٣٢٧).

٢- هو قول جمهور المفسرين(٣٢٨).

٣- رد بعض المفسرين الجهابذة على أصحاب غير هذا القول حيث اعتبر هذا من شذوذ الإمام مجاهد كما أشار إليه الإمام القرطبي، حيث يقول ما نصه: "وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه إنما مسخت قلوبهم فقط، وردت أفهامهم كأفهام القردة. ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم، والله أعلم"(٣٢٩).

٤- ولكون جواز المسخ، أمكن إجراء الآية على ظاهرها، ولم تبق حاجة إلى التأويل الذي ذكره الإمام مجاهد(٣٣٠).

٥- ظاهر القرآن أنهم مسخوا قردة على الحقيقة(٣٣١).

٦- العيش في صور القرود بمشاعر الإنسان من أبشع الصورة وأخسها. وهو العذاب الأخزى(٣٣٢).

٧- هذا القول أظهر في العبرة لأن فيه اعتبارهم بأنفسهم واعتبار الناس بهم بخلاف الثاني(٣٣٣).

٣٢٦- سورة المائدة، الآية: ٦٠.

٣٢٧- **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ١٩.

٣٢٨- انظر: ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج ١، ص ٧٤، و**تفسير القرطبي**، ج ١، ص ٤٤٣، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٣٩٧، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٨٣، و**تفسير الطاهر بن عاشور**، ج ١، ص ٥٤٤.

٣٢٩- **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١، ص ٤٤٣.

٣٣٠- انظر: الرازي، **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٥٤١.

٣٣١- **تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٨٣.

٣٣٢- انظر: **التفسير القرآني للقرآن**، ج ١، ص ٩٤ بتصرف.

٣٣٣- **تفسير الطاهر بن عاشور**، ج ١، ص ٥٤٤ بتصرف يسير.

ويؤيد هذا القول القواعد الترجيحية التالية:

* "تفسير جمهور السلف مقدم على كل تفسير شاذ"(٣٣٤).
* "القول الذي تؤيده آيات قرآنية أخرى مقدم على ما عُدِم ذلك"(٣٣٥).

عاشرًا: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣٣٦).

مسألة: ما مرجع ضمير "بِبَعْضِهَا" في الآية؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "عادت الحياة إلى المقتول، هذا هو المعنى الصريح في الآية، فأصبح الرجل حيا يعي كل شيء وظل كذلك إلى أن دل على القاتل. لكن العمل الذي قام به القوم للوصول إلى هذا الهدف، أي: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أشكل على بعض الناس. وأرى بأن ما رآه أسلافنا من المفسرين هو الأقرب إلى الصواب. أي: أمروا أن يضربوا جسد المقتول بشيء من لحم تلك البقرة التي أمروا بذبحها في الآيات السابقة. وبذلك كأننا صدنا عصفورين بحجر واحد: أحدهما، أنهم رأوا آية من آيات الله عز وجل. والآخر: وقع الفأس على مفرق تلك العقيدة التي كانت ترى في البقرة شأنا وقدسية ترشحها للعبادة والألوهية. فعلم الناس أنها لو كانت آلهة تملك شيئًا من القوة لكانت تنزل عليهم الكوارث والمصائب وتسلب عنهم حياتهم، لا أن يجني الناس من ذبحها فوائد، ويستفيدوا من قتلها"(٣٣٧).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ المودودي رحمه الله يتضح أنه اختار رأي الأسلاف من المفسرين، ويتبين منه أن مرجع الضمير "بِبَعْضِهَا" في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ يرجع إلى البقرة، ولقد صرح بذكر القول الذي اختاره، وبين دليله وأشار إلى أن هناك أقوالا أخرى في المسألة أيضًا، ووجدت خلال تتبعي للتفاسير أن المفسرين ذكروا القولين في المسألة، أذكرهما بإجمال على النحو التالي:

القول الأول: إن الضمير عائد في "بِبَعْضِهَا" على البقرة، والمعنى: أمرهم أن يضربوا القتيل ببعض أجزاء، أو أعضاء هذه البقرة المذبوحة، فيبعثه الله حيا، ويخبركم عن قاتله.

ثم اختلف العلماء في البعض الذي ضرب به القتيل، فقال بعضهم: إنه ضُرب بفخذ البقرة. وقال

٣٣٤- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٢٨٨.

٣٣٥- المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٢.

٣٣٦- سورة البقرة، الآية: ٧٣.

٣٣٧- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٨٦.

الآخرون: بالبضعة التي بين الكتفين. وقال الآخرون: بعظم من عظامها. وقال الآخرون: بأذنها. وقال الآخرون: بذنبها. وقال الآخرون: بلسانها(٣٣٨).

إلا أن ظاهر الآية لا يدل على تخصيص عضو من أعضائه، ولا فائدة في تخصيصه، ولم يرد به نقل صحيح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم(٣٣٩).

قال الإمام الطبري: "والصواب من القول في تأويل قوله عندنا: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾، أن يقال: أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا المضروب. ولا دلالة في الآية، ولا خبر تقوم به حجة، على أي أبعاضها التي أمر القوم أن يضربوا القتيل به. وجائز أن يكون الذي أمروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائز أن يكون ذلك الذنَب وغضروف الكتف، وغير ذلك من أبعاضها. ولا يضر الجهل بأي ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله"(٣٤٠). وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري(٣٤١)، وابن عطية(٣٤٢)، وابن الجوزي(٣٤٣)، وغيرهم(٣٤٤).

القول الثاني: إن الضمير عائد في "بِبَعْضِهَا" على النفس المقتولة، وانفرد بذكر هذا القول من

٣٣٨- انظر: **تفسير الطبري**، ج٢، ص ٢٢٩-٢٣١، و**تفسير الماوردي**، ج١، ص ١٤٣، و**تفسير ابن كثير**، ج١، ص ٣٠٣.

٣٣٩- انظر للمزيد من التفصيل: **تفسير الطبري**، ج ٢، ص ٢٣١، و**تفسير الراغب**، ج ١، ص ٢٣٠، و**تفسير ابن كثير**، ج١، ص ٣٠٢، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٩٣.

٣٤٠- **جامع البيان**، ج ٢، ص ٢٣١.

٣٤١- انظر: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٩.

٣٤٢- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٦٥.

٣٤٣- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٧٩.

٣٤٤- انظر: الرازي، **التفسير الكبير**، ج٣، ص ٥٥٣، و**تفسير القرطبي**، ج١، ص ٤٥٧، و**تفسير البيضاوي**، ج١، ص ٨٨، و**تفسير ابن جزي**، ج ١، ص ٨٧، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٤٢٠، و**تفسير ابن كثير**، ج١، ص٣٠٢، و**تفسير الألوسي**، ج١، ص ٢٩٣، وأشرف علي التهانوي، **تفسير بيان القرآن**، ج ١، ص ٤٠، وسيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج١، ص ٧٩، وإدريس كاندهلوي، **معارف القرآن**، ج ١، ص ١٥٠-١٥١، ومحمد عبد اللطيف الخطيب، **أوضح التفاسير**، ج ١، ص ١٣، وعبد السلام الرستمي، **تفسير القرآن الكريم**، ص ٤٢، وجماعة من علماء التفسير، **المختصر في تفسير القرآن الكريم**، إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، ط٣، ١٤٣٦هـ، ج ١، ص ١١.

المفسرين: الشيخ عبد السلام الرستمي[٣٤٥]. ولعل السبب في ذلك ـ والله أعلم ـ أنهم يبتغون بهذا التأويل أن يثبتوا عقيدة التوحيد ولا يترك مجالا للشبهة في هذا الباب.

التعليق

يتبين من القراءة في السطور السابقة أن الشيخ المودودي يرى أن مرجع الضمير في: "بِبَعْضِهَا" في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ يرجع إلى البقرة، واستند في ذلك إلى الاعتماد على رأي الأسلاف المتقدمين، ومستفيدا من الدليل العقلي الذي لطالما كان أحد المستندات الواضحة في منهج الشيخ المودودي. وإليه ذهب جمهور المفسرين أمثال: الطبري[٣٤٦]، والسمعاني[٣٤٧]، والراغب الأصفهاني[٣٤٨]،

٣٤٥- انظر: **تفسير القرآن الكريم**، ص ٤٢، وعبد السلام الرستمي هو: الشيخ المفسر أبو زكريا عبد السلام بن الشيخ عبدالرؤوف الرستمي الباكستاني، ولد في أسرة متدينة في قرية رستم من مضافات محافظة مردان بولاية خيبر بختونخوا، تخرج من المدارس الدينية المختلفة، حيث تعلم فيها علم التفسير والحديث والعربية والمنطق والفقه، ثم قام بتدريس ترجمة القرآن الكريم وتفسيره وبعض الكتب الفقهية من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يقوم بإلقاء الخطب والمحاضرات الدعوية والإصلاحية في بعض المناسبات، كما قام بتأسيس مدرسة عظيمة باسم "الجامعة العربية لإشاعة التوحيد والسنة"، حيث درس فيها الآلاف، وخاصة في دورة التفسير في شهري شعبان ورمضان كل سنة، وأسس منظمة باسم "إشاعة التوحيد والسنة على منهاج السلف"، وأسس مجلة شهرية باسم **سيرة السلف** كذلك، وقد ألف عشرات من الكتب العلمية باللغة العربية، والفارسية، والأردية، والبشتوية، منها: **تفسير القرآن الكريم** بلغة البشتو، **وتنشيط الأذهان في أصول القرآن**، باللغة العربية، **وترجمة درر منظومات**، باللغة الفارسية، **وإنكار حديث سے إنكار قرآن تک**، باللغة الأردية. توفي سنة ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م بعد معاناة لمرض طويل الأمد. الشيخ المفسر أبو زكريا عبد السلام الرستمي رحمه الله ملتقى أهل الحديث على الإنترنيت.

٣٤٦- انظر: **جامع البيان**، ج ٢، ص ٢٣١.

٣٤٧- انظر: **تفسير القرآن**، ج ١، ص ٩٤.

٣٤٨- انظر: **تفسير الراغب**، ج ١، ص ٢٣٠. والراغب الأصفهاني هو: العلامة الماهر، المحقق الباهر، أبو القاسم الحسين ابن محمد بن المفضل الأصبهاني (أو الأصفهاني)، الملقب بالراغب، صاحب التصانيف. أديب من الحكماء العلماء، من أذكياء المتكلمين، من أهل أصبهان، سكن بغداد واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. واختلف في سنة وفاته، فقيل في أوائل المائة الخامسة، وقيل غير ذلك، له تصانيف تدل على تحقيقه وسعة دائرته في العلوم وتمكنه منها، أذكر بعضا منها: **المفردات في غريب القرآن**، **وأفانين البلاغة**، **والذريعة إلى مكارم الشريعة**، وغير ذلك. انظر: الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج ١٨، ص ١٢٠-١٢١، والصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج ١٣، ص ٢٩، والداودي، **طبقات المفسرين**، ج ٢، ص ٣٢٩، والزركلي، **الأعلام**، ج ٢، ص ٢٥٥.

وغيرهم(٣٤٩). أما القول الثاني فلم يذكره السلف وإنما انفرد به المفسرون المتأخرون أمثال الشيخ عبد السلام الرستمي رحمه الله ومن سار مسيرته خلفا من المفسرين، والله أعلم.

الأدلـة

١- هو قول جمهور المفسرين.

٢- القول الثاني لم يذكره أحد من السلف فيما أعلم ـ والله أعلم.

٣- اللغة العربية: القول الثاني ضعيف من حيث اللغة، وذلك لأن الجملة تحتوي على ضميرين: أحدهما: للمذكر والآخر للمؤنث، وعلى أساس هذا القول يرجع الضميران إلى مرجع واحد. وهذا هو جانب الضعف فيه، لأن الأصل في اللغة العربية أن يتعدد مرجع الضمائر المختلفة، فيعود كل ضمير إلى مرجعه الذي يناسبه، كما هو الحال مع القول الأول الذي يرى أن ضمير المذكر يرجع إلى الميت وأن ضمير المؤنث يرجع إلى البقرة.

ويؤيد هذا القول القواعد الترجيحية التالية:

* "تفسير السلف وفهمهم لنصوص الوحي حجة على من بعدهم"(٣٥٠).
* "تفسير جمهور السلف مقدم على كل تفسير شاذ"(٣٥١).

حادي عشر: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣٥٢).

٣٤٩- انظر: **تفسير البغوي**، ج١، ص ١٣٠، و**تفسير ابن عطية**، ج١، ص ١٦٥، والرازي، **التفسير الكبير**، ج٣، ص ٥٥٣، و**تفسير القرطبي**، ج١، ص ٤٥٧، و**تفسير البيضاوي**، ج١، ص ٨٨، و**تفسير النسفي**، ج١، ص ١٤٥، و**تفسير الخازن**، ج١، ص ٥٣، و**تفسير ابن جزي**، ج١، ص ٨٧، و**البحر المحيط**، ج١، ص ٤٢٠، و**تفسير ابن كثير**، ج١، ص٣٠٢، و**تفسير أبي السعود**، ج١، ص١١٤، و**تفسير الألوسي**، ج١، ص ٢٩٣، و**تفسير القاسمي**، ج١، ص ٣٢٨، وأشرف علي التهانوي، **تفسير بيان القرآن**، ج١، ص ٤٠، و**تفسير المراغي**، ج١، ص١٤٥، وسيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج١، ص ٧٩، وعبد الكريم الخطيب، **التفسير القرآني للقرآن**، ج١، ص٩٨، ومحمد محمود الحجازي، **التفسير الواضح**، ج١، ص ٤٢، وإدريس كاندهلوي، **معارف القرآن**، ج١، ص ١٥٠-١٥١، ومحمد عبد اللطيف بن الخطيب، **أوضح التفاسير**، ج١، ص ١٣، وعبد الكريم الخطيب، **الموسوعة القرآنية**، ج١، ص ٩٢، ونخبة من أساتذة التفسير، **التفسير الميسر**، ج١، ص ١١، والجزائري، **أيسر التفاسير**، ج١، ص ٧١، والصابوني، **صفوة التفاسير**، ج١، ص٥٩، وجماعة من علماء التفسير، **المختصر في تفسير القرآن الكريم**، ج١، ص١١.

٣٥٠- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٢٧١.

٣٥١- المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٨.

٣٥٢- سورة البقرة، الآية: ٧٥.

مسألة: ما المراد بـ: "فَرِيقٌ مِنْهُم" في الآية؟

قال الشيخ المودودي رحمه الله: "فَرِيقٌ مِنْهُمْ": هم علماؤهم وأصحاب الشريعة فيهم... وكذلك يطلق "التحريف" على التغيير في الألفاظ وتبديلها. وقد حرف علماء بني إسرائيل معاني كلام الله ومفاهيمه كما حرفوا ألفاظه وكلماته"(٣٥٣).

دراسة النص

من خلال عرض كلام الشيخ المودودي رحمه الله يتضح بجلاء أنه عرض قولا واحدا في المراد بـ: "فَرِيقٌ مِنْهُمْ" في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾، ولم يعرض أقوالا أخرى للمفسرين، مما يدل على أن القول الذي ذكره، وركز عليه هو المختار عنده، إلا أنني وجدت أن المفسرين ذكروا أربعة أقوال في المسألة، أذكرها بإجمال على النحو التالي:

القول الأول: يراد بهم هنا: طائفة من أسلافهم (اليهود)، وهم أحبارهم وعلماؤهم الذين كانوا يسمعون كلام الله (التوراة) ثم يحرفونه ويكتمونه ويؤولونه تأويلا فاسدا باطلا، كما حرفوا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ونحوه. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري(٣٥٤)، وابن الجوزي(٣٥٥)، وأبو حيان الأندلسي(٣٥٦)، وغيرهم(٣٥٧).

القول الثاني: يراد بهم هنا: السبعون المختارون من أهل الميقات الذين سمعوا كلام الله حين كلم موسى عليه السلام بالطور، وما أمر به ونهى، ثم بدلوه وحرفوه بعد ذلك، حيث قالوا: سمعنا الله تعالى يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا(٣٥٨). وممن ذكر هذا القول من المفسرين: الطبري(٣٥٩)، وابن الجوزي(٣٦٠)، والرازي(٣٦١)، وغيرهم(٣٦٢).

٣٥٣- **تفهيم القرآن**، ج ١، ص ٨٧.

٣٥٤- انظر: **جامع البيان**، ج ٢، ص ٢٤٦.

٣٥٥- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٨٠.

٣٥٦- انظر: **البحر المحيط**، ج ١، ص ٤٣٩.

٣٥٧- ينظر: **تفسير ابن كثير**، ج ١، ص ٣٠٨، و**تفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٩٨، وأشرف علي التهانوي، **تفسير بيان القرآن**، ج ١، ص ٤٢.

٣٥٨- انظر: الزمخشري، **الكشاف**، ج ١، ص ١٥٦.

٣٥٩- انظر: **جامع البيان**، ج ٢، ص ٢٤٧.

٣٦٠- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٨٠.

٣٦١- انظر: **التفسير الكبير**، ج ٣، ص ٥٦٠.

القول الثالث: يراد بهم هنا: جماعة من اليهود الذين عاصروا نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، وقد كانوا يسمعون الوحي المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم فيحرفونه، وهدفهم من هذا الإدخال في الدين ما ليس فيه، والتضاد في أحكامه. وممن ذكر هذا القول من المفسرين: أبو حيان الأندلسي، والألوسي، وذكره الألوسي بصيغة التمريض(٣٦٣).

القول الرابع: يراد بهم هنا: كل من حرّف في التوراة حكما أو غيره كفعلهم في آية الرجم ونحوها(٣٦٤). وممن ذكر هذا القول من المفسرين: ابن عطية، وأبو حيان الأندلسي(٣٦٥).

التعليق

يظهر من القراءة في الدراسة المذكورة أن الشيخ المودودي رحمه الله اختار من بين عدة أقوال ذكرها المفسرون قولا واحدا، حيث ركز عليه، ولم يول الأقوال الأخرى اهتماما مما يدل على أن القول الذي ذكره هو المختار عنده، وهو أن يكون المراد بهؤلاء "علماؤهم وأصحاب الشريعة فيهم... وكذلك يطلق "التحريف" على التغيير في الألفاظ وتبديلها. وقد حرف علماء بني إسرائيل معاني كلام الله ومفاهيمه كما حرفوا ألفاظه وكلماته"، واعتمد في هذا المعنى على السياق العام الذي وردت فيه الآيات التي تتحدث عن التحريف والتغيير اللذين كانا شيمة من شيم علماء بني إسرائيل الواضحة. وإليه ذهب جمهرة من المفسرين أمثال: الزمخشري(٣٦٦)، وابن الجوزي(٣٦٧)، والبيضاوي(٣٦٨)، وغيرهم(٣٦٩).

٣٦٢- انظر: **تفسير القرطبي**، ج ٢، ص ١، وأبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط**، ج ١، ص ٤٣٩، **وتفسير ابن كثير**، ج١، ص ٣٠٧، **وتفسير الألوسي**، ج ١، ص ٢٩٩، وأشرف علي التهانوي، **تفسير بيان القرآن**، ج ١، ص ٤٢.

٣٦٣- انظر: **البحر المحيط**، ج ١، ص ٤٣٩، **وروح المعاني**، ج ١، ص ٢٩٨.

٣٦٤- **تفسير ابن عطية**، ج ١، ص ١٦٧.

٣٦٥- انظر: **المحرر الوجيز**، ج ١، ص ١٦٧، **والبحر المحيط**، ج ١، ص ٤٣٩.

٣٦٦- انظر: **الكشاف**، ج ١، ص ١٥٦.

٣٦٧- انظر: **زاد المسير**، ج ١، ص ٨٠.

٣٦٨- انظر: **أنوار التنزيل**، ج ١، ص ٨٩.

٣٦٩- انظر: **تفسير النسفي**، ج١، ص ١٠٢، **وتفسير الثعلبي**، ج١، ص ٢٢٢، **وتفسير الجلالين**، ج١، ص ١٦، **وتفسير الألوسي**، ج١، ص ٢٩٨، **وتفسير المراغي**، ج١، ص ١٤٩، وسيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج١، ص ٨٤، ونخبة من أساتذة التفسير، **التفسير الميسر**، ج١، ص ١١، وطنطاوي، **الوسيط**، ج١، ص ١٧٩، ووهبة الزحيلي، **التفسير المنير**، ج١، ص ١٩٦، وجماعة من علماء التفسير، **المختصر في تفسير القرآن الكريم**، ج١، ص ١١.

الأدلـة

١- هو قول الجمهور. يقول الإمام ابن جزي في مقدمة تفسيره: "أن يكون القول قول الجمهور وأكثر المفسرين: فإن كثرة القائلين بالقول يقتضي ترجيحه"(٣٧٠).

٢- السياق.

٣- عدم تعرضه للرد والنقد.

ويؤيد هذا القول القواعد الترجيحية التالية:

* "تفسير جمهور السلف مقدم على كل تفسير شاذ"(٣٧١).

* "إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما، إلا بدليل يجب التسليم له"(٣٧٢).

الخاتمة والنتائج

لقد توصل البحث بعد الدراسة في الصفحات السابقة إلى مجموعة من النتائج التالية:

١- لقد ورد في هذا الفن مصطلحان مهمان هما: الترجيح والاختيار، وقد اعتبرهما القدماء مصطلحين يدلان على مدلول واحد، أما المتأخرون فقد فرقوا بينهما، فيرون أن الترجيح لابد فيه من ذكرالأقوال والترجيح بينها، والاختيار ذكر الصحيح منها فقط، ومنهم من يرى أن الترجيح ما رجحه القدامى وذكروا أدلة ترجيحه، ومن جاء بعدهم فنقله لما رجحوه يعد اختيارا، وليس ترجيحا، لأنه لم يأت بجديد، وكل ما رجحه المتأخرون لايسمى ترجيحا إلا إذا لم يسبقوا إليه.

٢- إن الاختيار في لغة القرآن يراد به التفضيل والانتقاء والاصطفاء.

٣- احتوى تفسير سورة البقرة من تفهيم القرآن على عدد من اختيارات الشيخ في مختلف المسائل والموضوعات القرآنية، وهي ترد عنده في بعض الأحيان بصورة منصوص عليها، وترد في أخرى بصورة غير مصرح بها.

٤- اختار الشيخ أن المراد بالخليفة هو من ينوب صاحب الشيء في إجراء ما فوض إليه المالك من الصلاحيات. فالخليفة ليس هو المالك نفسه، وإنما من ينوب عن المالك فيما وكله من الصلاحيات.

٣٧٠- **التسهيل لعلوم التنزيل**، ج ١، ص ١٩.

٣٧١- الحربي، **قواعد الترجيح عند المفسرين**، ج ١، ص ٢٨٨.

٣٧٢- المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٥.

٥- اختار الشيخ أن الهمزة استخدمت في قوله تعالى: "أَتَجْعَلُ فِيهَا"، للاستفهام الحقيقي على سبيل استطلاع الحكمة الكامنة في هذا العمل الرباني، والخافية عليهم، وليس فيها معنى الاستنكار والاعتراض من قِبَل الملائكة على هذا الأمر الرباني الجليل.

٦- اختار الشيخ أن المراد بتعليم آدم الأسماء كلها هو تزويده بعلم الأشياء كلها.

٧- اختار الشيخ أن الملائكة المأمورين بالسجود لآدم عليه السلام هم بعض الملائكة وهم ملائكة الأرض.

٨- اختار الشيخ أن المراد بالسجود هو وضع الجبهة على الأرض على وجه الحقيقة لآدم طاعة لله لا سجود عبادة.

٩- اختار الشيخ أن إبليس من الجن وليس من الملائكة.

١٠- اختار الشيخ أن الضمير في "إِنهَا لَكَبِيرَةٌ" عائد إلى الصلاة.

١١- اختار الشيخ أن المراد بـ: "وَأَني فَضلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ" تفضيلهم على غيرهم في تلك الفترة التي كانوا يحملون فيها الرسالة السماوية والدعوة الربانية، وكانوا أئمة وهداة.

١٢- اختار الشيخ أن "بلاء" استخدم بمعنييه، لأن "البلاء" هو الاختبار والامتحان، والاختبار قد يكون بالنعمة ليختبر به شكر العبد، وقد يكون بالنقمة ليختبر به صبره.

١٣- اختار الشيخ أن المراد بالمأمورين بقتل أنفسهم هم: غير العابدين الأبرياء.

١٤- اختار الشيخ أن المراد بمسخ اليهود قرودا هو المسح الصوري الذي تمثل في الأشكال والأجساد، بينما بقيت العقول على ما كانت عليه.

١٥- اختار الشيخ أن الضمير في "بِبَعْضِهَا" يرجع إلى البقرة، وليس إلى النفس المقتولة.

١٦- اختار الشيخ أن المراد بـ "فَرِيقٌ مِنْهُمْ" علماؤهم وأصحاب الشريعة فيهم.

١٧- وقد لوحظ في معظم اختيارات الشيخ المتقدمة أنها تأيدت بعدد من القواعد الترجيحية التي وقفت تساند هذه الاختيارات وتعضد من أزرها.

١٨- كما أن هذه الاختيارات استمدت قوتها من عدد من الأدلة التي تمثلت في القرآن الكريم ونصوصه الشريفة مرة، وفي الحديث النبوي الشريف ونصوصه مرة ثانية، وفي اللغة العربية واستشهاداتها المتعددة مرة ثالثة.

التوصيات

بعد الدراسة والاستقراء في الصفحات السابقة تتقدم الباحثة بعدد من التوصيات والمقترحات التالية:

- ينبغي أن تشجع أقسام التفسير وعلوم القرآن بالجامعات الباكستانية طلابها وطالباتها على دراسة التفاسير المعاصرة المكتوبة بغير اللغة العربية، وذلك للوقوف على اختيارات مؤلفيها، ومعرفة الأسس والقواعد التي اعتمدوا عليها في ذلك العمل العلمي.
- يستحسن أن تعرض أقسام التفسير وعلوم القرآن بالجامعات أو الجهات المعنية بالتفاسير وعلوم القرآن هذا الموضوع على طلابها وطالباتها وأهل التخصص فيها كموضوعات بحث تكميلي لمرحلتي الماجستير والدكتوراه، وذلك في السور المتبقية منه، حتى تتم هذه المسيرة العلمية، وتكتمل خطواتها.
- القيام بتعريب التفسير كاملا، خاصة وأن بعض السور منه قد تم تعريبه من قبل، كتعريب سورة الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، والكهف، ومريم، والنور، والأحزاب.

****